

اقرأ

عبدالرحمن صدقي

نور

الشاعر الرّجيم



دار المعارف

0070205



Bibliotheca Alexandrina

84

اقرأ

[٧]

الشاعر الرجيم
بودلير

عبدالرحمن صدقي

الشاعرُ الرَّجِيمُ

بوكر
دعوى

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
2010-09-2	الطبعة الثالثة رقم التصنيف
صنعت في مصر	مزيدة ومزينة بالصورة
١٦٢٥٧	رقم التسجيل



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



تصدير

ليست هذه بالترجمة الخالصة لحياة بودلير ، ولا هي بالدراسة النقدية الخالصة لشعره ، ولكنها الشيطان معاً . وإذا صبح أن كان بين الفنانين من قام موضوع فنه بمعزل عن موضوع حياته ، فإن بودلير من ذلك في القطب المقابل والطرف النقيض . فالقن هنا وحياة الفنان كل لا يتجزأ . ولعل الرجل والشاعر لم يمتزجا في أحد امتزاجهما في بودلير . فلن نعرف الرجل حق معرفته إلا إذا تأملنا في شعره ، ولن نقدر الشاعر قدره ونفهم ما يقول على وجهه إلا إذا اطلعنا طلع حياته ووقفنا على خبره . ولا شك في أن هذا مطلب مزدوج . ولكنه كان على ازدواجه يكون هيئاً سهلاً لو أننا بسبيل رجل غير بودلير وشاعر غير بودلير . فلقد شاعت الأقدار المعاكسة — في جملة ما شاعت في نكايته — أن يلرج الذاكرون له من أهل زمانه على رواية أشتات من الأقاويل عنه ، انتشرت له منها شهرة سيئة ، وانطبعت له في أوهام الناس صورة منكرة . وكان هو نفسه أحرص الجميع على تهجين سمعته وتشويه صورته ، وكان أوفرهم سهماً في إشاعة الشناعات عن سيرته ، والتهويل بخبايا دحييلته ، ولعاً منه بالتلبيس والإيهام ، والتذاذ باللعب بعقول السادة الجامدين ، وترويع دعتهم والعبث باحتشامهم وتزمتهم . وجاء جيل الشباب — وهم بطيعهم مدفوعون إلى الثورة — فاستطروا إعجاباً بهذه المواقف من (الشاعر الرجيم) ، وتمثلوه في صورة الشيطان المفسد ، خدن الشر وداعيته ، فارس الظلمات المستهتر بالأقداس والحرمات ، الناقم على الأرضين الساخر بالسماوات . وكثر بينهم المقلدون لهذا المثال الذي نصبوه . وشأن المقلدين الذين لا يتخدمهم قريحة ولا يرجعون إلى سليقة أن يترخصوا في المحاكاة فإذا هم يشبهون

عبرهم بهم ولكن من جهة سواته ومعاييه ، وهم يشتطون فيها ويغالون لأنها كل بضاعتهم ، فلا يلبث أن تلصق بظلمة شبحه ظلمات أشباحهم ويختلط على الناظر سبأؤه بسبأهم .

هذا بودليز الرجل من ناحية سيرته ، ولا يخلف عن ذلك شأن بودليز الشاعر في مجموعة أشعاره . فهو وإن كان يصدر فيها عن حسه ، ولا يخرج بها قط عن شخصه ومشاكل نفسه ، ومع ما التزمه فيها من صدق كصدق الاعتراف ، كان صاحب فن خلّاق يتصرف في الشكل ، ويبدل في الوضع ، ويلقى الأزياء ، ويؤلف بين الأشتات ، على موجب صناعته ، ومقتضى قلبه ، تحرياً للأثر الفني الذي يتوخاه .

فلا جرم تكون المهمة الملقاة على الكاتب ليست — كما قد رأى القارئ — بالمهمة اليسيرة التي لا كلفة فيها عليه ولا عناء ، إلا أنه قد أسلس أمرها وهون صعبها ذلك الفيض من المؤلفات التي تدور حول بودليز ، والتي ما برحت متلاحقة متواترة منذ القرن الماضي إلى وقتنا ، والتي نجد بين أصحابها من وقفوا حياتهم وقصروا همهم على تحرير أخباره ، كما توجه الأكثرون إلى تحليل أشعاره وسائر آثاره الأدبية . وذلك أصدق الشهادة على أن المستقبل له ، وعلى أنه كما قال عنه فكتور هيجو — وكأنما قال هذه المرة عن تلقين الغيب — الشاعر الذي سرت منه في الأدب انتفاضة جديدة .

عبد الرحمن صدقي

صوت من وراء القبر

قبل أن نكشف عن حياة بودلير بما فيها من عُرف ونكر ، ونستجلى
في أغوارها السحيقة ما تنطوى عليه من سر ، وقبل أن نفتح ديوانه الموسوم
بـ (أزهار الشر) ونستنشى منه الفاغم الحاد من غريب العطر ، نرى لزماً
علينا أن نتنحى ليكون بودلير البادئ ، فيقول كلمته من وراء القبر ^(١)
إلى القارئ :

أيها القارئ المطمئن الوادع
يا رجل الخير ، السليم الطوية ، القانع
اطرح من يدك هذا الكتاب
هذا الكتاب المستهتر الفاجع

* * *

إذا كنت لم تتلقن فنون البيان
على النقيب الماكر الشيطان
فاطرح كتابي ، فاست واعياً منه شيئاً
أو أئت معتقدي لوثة العقل والخيال

* * *

(١) هذه القصيدة من أثماره المتأخرة ولم تظهر إلا في طبعة ديوانه التي
ظهرت بعد وفاته .

أما إذا استطاع طرفك - غير مفتون -
أن يمعن في الأغوار
ويغوص في اللجة إلى القرار
إذاً فاقْرَأْنِي تتعلم محبتي

* * *

يا أيتها النفس المتطلعة
أنت يا من تألين في الوجود
وتحومين باحثة عن فردوسك المفقود
ارثي لي ! . . . وإلا عليك لعنتي

ميلاد شاعر

« أنا إنسان مريض شنيع الطباع ، والذنب في ذلك ذنب أبوى . ومن جراحهما يسرع البلى في نسجى ، وتنحل عراى ، وترث قواى . ذلكم شأن من يولد من أم في السابعة والعشرين ، وأب طاعن في الثانية والستين . فتأمل يا صاح . خمسة وثلاثون عاماً بين الاثنين . تقول إنك تدرس علم البنية وتركيب الطبائع على كلودبرنار ، ألا فسائل أستاذك عما يرى في الثمرة المتقحمة الحاصلة عن قران كهذا القران » .

هذه الإشارة الأليمة من خطاب كتبه بودلير سنة ١٨٦٤ إلى بعض أصحابه ، وهو يطالعنا في هذه الألفاظ القلائل بمأساته الفاجعة ويزيد في فجاعتها أن الضحية مدركة واعية لنوع الجنابة وكنهها وأنها عميقة الشعور بما يربطها بجنائها . وفيما يلي بسط لهذه الإشارة وتفصيل لمجملها .

كانت كارولين ديفاييس (Caroline Dufays) أم الشاعر أقرب إلى الملاحظة الجذابة منها إلى الجمال الرائع ، ريانة الصبا ، ولكنها رقيقة المزاج غير عامرة البنية . وكانت لطيفة الشعور إلى حد يشبه أن يكون مرضاً ، ثم هي يقظى الحس ، مشبوبة العاطفة . وكان لكارولين بالأهبة وفاخر الزينة ولع شديد كاد يكون مشغلةً ووسواساً مسلطاً . وذلك أنها في سنى حياتها الأولى حرمت حتى وسائل الراحة وأسبابها . فقد تيمتت صغيرة ، إذ مات عنها أبوها الضابط الملكي الذى أبحاثه الثورة الفرنسية إلى الهجرة في جملة من هاجروا إلى إنجلترا حيث كانت وفاته بعد سنوات قلائل من ميلادها في لندن من أمها الإنجليزية . فكفلها صديق من أصدقائه الأولين من رجال المحاماة الموسرين ، كانت له في ذلك الحين — عهد الإمبراطور

نابليون — دار كبيرة في باريس ومصطاف خلوي في الريف ، وكان من رزقه ومن بيته بمتسع ، فاتخذ الصغيرة اليتيمة رفيقة لكريماته ، ولا شك في أنها تقدر للرجل صنيعة وتعرف له حق نعمته ، إلا أنه لا شك أيضاً في ألها الدخيل حين كانت تقابل بين حظها وحظهن ، وترى اقتناءهن لما بشأن من فاخر الثياب دون نظر إلى الكلفة ، وكيف يخطب ودهن أرشق فتیان العصر من أجل المال المرصود لصداقهن ، على حين لا معول لها على غير وسامة طاعتها وميسم حسنها الطبيعي . ولما كانت سنو الثورة وحروب نابليون قد أفنت الكثير من عتاد المال ، وألحقت التلف والضیاع بثروة معظم أصحاب الثراء ، فقد كان الشباب وقتئذ منصرفين — كانوا صرافهم اليوم — عن تحميل أنفسهم عبء الزوجة لا مال لها ، وكان الزواج إنما يتخذونه معواناً لهم على ما بسمونه — ونسميه اليوم — كفاح العيش . فلا غرو أن تبلغ كارولين ديفاييس الخامسة والعشرين من عمرها ولما يتقدم طالب زواج بها ، وقريباً يقطع كل أمل لها في الزوج أياً كان . فهي غير مختارة ولا مطمع لملئها في زواج بمن تحب : وإذاً فلا معدى لها من أن تخفض جناحها وتطأطئ من إشراف أحلامها وترضى بما تجد .

وكان بين الزوار الذين يختلفون على تلك الدار أرمل كهل هو فرانسوا بودلير (François Baudelaire) . شيخ ظريف الهيئة ناصع الشيب ، له شمائل أهل البلاط في العصر القديم وفرط أدبهم . ولعل ذلك كان بحكم اتصاله بأسرة الدوق شوازيل براسلين (Choiseul Praslin) مريباً لنجليه في عهد الملكية الأولى إلى قيام الثورة . وكان مقام هذه الأسرة النبيلة في قصر جميل له حديقة غناء تنحدر كالدرج حتى ضفة السين قبالة قصور التواري . وكان يقوم في طرف هذه الحديقة على مقربة من النهر منزل أنيق يزدان بالتحف الفنية من روائع المجموعة التي يكتننها الدوق . وقد شاء الدوق أن يجعل إقامة الأستاذ المربي وتلميذه في هذا المنزل ،

وجعل له الحرية في أن يحيا فيه الحياة التي يرتاح لها كما لو كان هو رب البيت . فكانت له مركبته الخاصة به ، وخدمه المنصرفون لخدمته ، حاجاته مكفية ، ورغائبه مقضية ، وله فوق ذلك مائة وستون جنياً في العام ، وهي تعدل ضعفها أو ثلاثة أمثالها في وقتنا . فالرجل كان يحياها حياة السيد الأمر ، بأدب المآدب متى يشاء ، ويدعو من يشاء ، وكثيراً ما كان يدعو إليها الدوق والدوقة . فهو لم يكن قط عند القوم بموضع المأجور الممتن . وأبلغ من هذا في الدلالة على مروءة الرجل وشعوره بالكرامة أنه ، وقد ارتضى أن يبيعهم تعليمه ، لم يخطر له أن يدخل في الحساب رأيه ، فاحتفظ باستقلال تفكيره عنهم . فهو من أنصار الحرية ، تجمعته الصداقة بالعلماء من دعايتها . ولعله لم يكره من الثورة حين شبت إلا شططها وفظائعها . بيد أننا نعود لنقرر أن اتصاله بهؤلاء السادة الاستقراطيين كان له من بعض الوجوه أثره ، ففي هذه البيئة نما عند فرانسوا بودلير تذوقه للترف وأبهة المظهر ، وقد أورث هذا الذوق مضاعف الفائدة لولده بودلير ، كما أنه أورثه حب الفنون ، فإن فرانسوا كان من هوايتها ، يقضى الجانب الكبير من أوقات فراغه في نقل ما يقتنيه الدوق من صور لمشاهير الفنانين ، بل كان يحلم بأن يكون في يوم من الأيام مصوراً ، ويعد التصوير عمله الذي خلق له ، وقد اتصلت أسباب المودة بينه وبين بعض أصحاب المواهب من المثالين والرسميين في عصره . وكان يجيد الرسم بالقلم الملون وبالألوان المائية . وكانت موضوعاته المحببة هي الوجوه البشرية والأجسام العارية . ومهما يكن من نسبة هذه الأشكال إلى ربات الأساطير وبنات الخيال ، فإن هذا الإقبال منه - حتى في كبره - على تشكيل الأعطاف اللدان والقسمات الحسان شاهد على نزعة حسية ومزاج شهوى ، يكسوهما الخلق المهدب والروح الفنية ، ومصدق لما يقال من أن حياته الجنسية كانت حتى الرابعة والأربعين حياة الفنان في

اضطرابها وانطلاقها ، وإن لم تكن كذلك حياته الاجتماعية .

وقد أثر عن فرانسوا بودلير وفأؤه لسادته وأصدقائه ، وتخليصه أموالهم ، واستنقاذه لأعناقهم ، وعدم إسفافه في عهد من العهود . ومع كل هذا فقد ساعده اتزانته على تجنب المزالق في سياق التقلبات السياسية من ملكية آل بوربون إلى مجالس الثورة ، ومن إمبراطورية نابليون إلى عودة الملكية . فخرج في آخر المطاف بمعاش جليل ، فضلاً عما آل إليه في زواجه الأول من أراض وضباع . ومضت على ذلك بضعة سنين ونيف الشيخ على الستين ، فإذا العزوبة تثقل عليه في تلك السن المتأخرة ، وإذا به متطلع في زيارته إلى تلك الصغيرة كارولين التي أصبحت اليوم ثمرة شبيهة طيبة . فهو يتبعها نظره وعطفه ، ويدعوها من حين إلى حين « يا ابنتي ! » ليطمئن له طائرهما ويأمن جافلهما ، ولعل تطاول الأيام بها من غير أمل في خاطب قد هدى الشيخ إلى موضع ضعفها فأخذ يعمل على ترويضها . ولعله كان المرة بعد الأخرى يسألها مضيقاً وممازحاً : « خيراً يا فتاتي ! أما تزوجت بعد ؟ ألا فصدقتي ، سينتهي الأمر بنا إلى أن يتزوج أحدنا الآخر » ، وما كان ليفوت باقعة مثله أن يحدثها عن أخبار ضيعته وأوصافها وعن موارده ومقدارها ، لتمثل الطمأنينة والدعة في كنفه . ثم هي لما تزل تذكر — وهي مأخوذة — أنه كان منذ سنوات يأتي إلى الزيارة في مركبة عليها طراز مرسوم ، وبين يديه التابع الوصيف بشعره الأبيض المستعار وشرائط الذهب على منكبيه ، وكيف كان التابع يظل واقفاً خلفه في العشاء قائماً على خدمته على عادة السادة في تلك الأيام . ولم تكن قد عرفت أن المركبة إنما هي كما تدل شاريتها مركبة مجلس الشيوخ الذي كان وقتئذ من كبار موظفيه الإداريين ، وأن التابع كان ساعي المجلس لتبليغ الدعوات عند الاقتضاء . هذه المظاهر كلها فعلت في نفس كارولين الساذجة فعلها ، وهي كما رأينا كسيرة الجناح مضغضعة القوى المعنوية :

من أثر الملابس القاسية وظروفها غير المؤاتية . وكأننا بالشيخ وقد اغتم مقدم الربيع ، وجعل يطوف معها في ممشى الحديقة ، وقد تبرجت الطبيعة وأخذت حفل زينها ، حتى سكر حسنها وفاضت بدواعي الشوق نفسها المحرومة . فلما أن خطبها الشيخ أخيراً إلى عائلها لم تؤخذ على غرة فلم ترع ولم تمنع .

وقع هذا الزواج في التاسع من سبتمبر عام ١٨١٩ . ولحقت كارولين بزوجها في داره العتيقة التي اتخذها منذ اعتزاله الوظيفة . وهي دار متقدمة العهد مجددة ، ويفضي إليها من مدخل كبير مقوس ، ولا تزال بها مخلفات من العمارة القديمة كالأبراج الصغيرة في أركان البنيان ، ثم تلك الحديقة العميقة ذات الدوح المعمر ، وارقة الأفنان ، غاطة الظلال يفوح منها في أيام الخريف المطيرة رائحة الطينة الحرة العتيقة .

وأما أثاث الدار فكان مثل الدار نفسها ، بعضه مما خلفته امرأته الأولى ، وبعضه مجدد . على أن أظهر ما كان بالدار من زينة ذلك الحفل من التصاوير بالألوان المائية والأصباغ المائية الصمغية والأقلام الملونة التي نقلها ، وطائفة من الرسوم المحفورة المحكية ، ونماذج من تماثيل الأقدمين . فهي بالإجمال وقبل كل شيء دار فنان . وأكبر الظن أن كارولين كانت تدرج منكنسة الطرف من الحياء بين هذه الصور المتعرضة المتجردة ؛ بين الزهرة ربة الجمال ، وأبولو رب الفنون وراقصات باخوس وما إلى ذلك مما في الأساطير الوثنية من مظاهر لعبادة الحياة والجمال . إلا أنه في وسط هذا الغمار من المرح الوثني كان لكارولين صورة من الصور الدينية المسيحية علقها لتستزل بركتها وتأنس بها من وحشها .

وكان ضيوف فرانسوا من أحرار الفكر ، لا يتخرجون من تناول الكنيسة ورجالها بسوء القول أمام الزوجة الشابة ، وكان يتعاطفها هذا الأمر

ويجرح عزتها ، ولكنها لم تكن لتجد من نفسها الجرأة على مراجعتهم والاعتراض عليهم ، فكانت تجمد وتحتجز عنهم ، لا يضعف لها إيمان ولا تترزع عقيدة . وكذلك كان زوجها وأصحابه في السياسة أيضاً من أنصار الحرية ، لا يؤمنون للملوك بحق إلحى ، وإن لم يذهبوا في الثورة مذهب المتطرفين . أما هي فكان هواها أجمع مع الملكية ، إذ ما من شك في أن والديها قد أفرعا أحلامها في المنى وهي صغيرة بما كانا يقصانه عليها من فظائع الثوار ، حتى صارت كلمة الشعب تحمل صورة الأفواج من الهمج شاهري السيوف والحرايب يعجبون ويضجون في طلب الدماء .

بيد أن هذا كله لم يكن له شأن في الحياة الزوجية . فقد كانت حياة الزوجين وادعة هادئة ، ولولا تفاوت السن لأضفنا أنها كانت عندهما على السواء سعيدة هائلة . ولقد كان فرانسوا حفيها ، شديد التلطف معها ، خافض الجناح لها ، حريصاً على مرضاتها . ولم يزل بعد الزواج كما كان قبله ظريف المحاضرة ، جم التأدب ، ولم يتغير خطابه لها ، ولم يفكر قط في أن يخدعها عن سنه ، وما وراءه من ماض طويل ، فكانت إذا روت له خبراً يقول مقالة الشيخ الذي استوفت تجاربه وامتلأت كأس حياته : « هذا الذي تروينه — يا بنيتي ! بعيد إلى ذاكرتي كذا وكذا من أحداث العهد الحالى » ، ثم إنه لاشتغاله بها ، وشدة إقباله عليها كان طيفها يكاد يحجب عنه طيف « كلود القونس » ابنه من زواجه الأول وهو إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره . ولعل كارولين كانت تسد مسده لمقامها عند زوجها الشيخ مقام الزوجة والابنة معاً .

وكان القائم على تدبير المنزل خادمة فرانسوا في أيام العزوبة . وقد سلخت في خدمته سنوات طوالاً . فهي بحكم العادة تستبد بشئون البيت استبدادها الأول ، جادة مخلصه كأن الأمر لها ، ولا غرو تحس كارولين أحياناً أنها كالقاصر تحت كفالتها ، ولا تملك أحياناً بوادر غيرتها .

وكانت كارولين في حديثها مع زوجها تدعوه : « يا صديقي ! » -
ولم يمض طويل وقت على زواجها بصديقها الشيخ حتى راعها أنها حملت ،
فهي حين ارتفضته زوجاً إنما استجابت لداعي العقل ولم تخطر لها الأمومة
ببال .

وفي ظل وارف من الحنان المضاعف من هذا الأب الشيخ الفنان
وهذه الأم الحية الوجدان ، عاش الطفل أيام طفولته التي لا ينساها في
مثل نعيم الجنان .

عهد الجنة الأولى

كان ميلاد الطفل في التاسع من إبريل ١٨٢١ واختير له اسم شارل بيير بودليير . وما نظن بالقارئ حاجة إلى الإطناب في وصف ما داخل الشيخ فرانسوا بودليير من السرور ، وما استطاره من الابتهاج ، وأخذه من هزة الطرب ، حين رزق ابناً بعد أن أربى على السنين . فهو شديد الاهتمام به ، يحمله في ذراعيه ، ويرعى خطاه الأولى ، ويقف به أمام الصور التي تزدان بها الجدران . فيتلقى الطفل عن البقع المبرقشة سحر الألوان ، ولعله كان حين يلقنه المفردات . يعمد إلى تقريبها بأن يرسم له ما تمثله من المحسوسات ، حتى تيقظت حواسه للأشكال وتكوين الأجسام ثم كانت بعد ذلك نزهتهما في رياض لكسمبرج وهو ممسك بجمع يده الناحلة المعروقة ، يد طفله الدقيقة الصغيرة ، وكلما جازا بتمثال من تماثيلها الكثيرة شرح له قصته العجيبة ، حتى نشط خياله الناشئ في وسط هذه الطبيعة الجميلة العامرة بأروع الأرباب وأجمل الربات ، وعاش صباه الأول بين أساطير الوثنية المتقنة البديعة . وهنا أيضاً درج الطفل « يلاعب الريح ويخاطب السحاب » في حجر الطبيعة :

« تلك الذئبة الممتلئة المصدر بالحنان العميم »

« تشبع بالأفاويق من ثديها الأحوى جميع العالمين »

ولا شك في أن الناظر إلى هذا الوالد وابنه كان يحسبهما جدا وحفيده فإن كفيهما المتعاقدين يصلان القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، وبينهما تلك الشقة الواسعة من طوال الأعوام الحافلة بالأحداث الجسام . ولقد ادخر الطفل — فيما ادخر — ذكريات هذه الجولات مع أبيه وهو

ابن خمس سنين في رياض لكسبرج . فكان حتى آخر أيامه يكثر من التحدث عنها إلى خلانه ويطيب له ترديدتها في مجالسه والإشارة إليها في شعره . وأما في البيت فكان ما يتلقاه الطفل من المشاعر أكثر تعقداً . فقد كان يجد نفسه أمام لغز غامض من نوع العلاقة بين هذه الشابة الناعمة في نضرة الحسن وميعة النضبا وهي أمه ، وبين هذا الشيخ الطاعن في السن الذي لم يبق له من سواد الشعر إلا حاجباه ، وهو أبوه .

وكان يتبلبل خاطره وتضطرب حواسه من ذلك البريق يوجب في نظرة الشيخ إذا هي اتخذت زينتها وتحلت بأبهج حللها . وكذلك حين تدعو زوجها « يا صديقي » وتتصرف معه تصرف الارتباك والدلال معاً . ثم من ذا يكون هذا الفتى الطالب في معهد الحقوق الذي يقدمونه إلى شارل على أنه أخوه ، والذي تقل زياراته لهم عاماً بعد عام ، والذي يدعوها مرة « يا أمي » ومرة أخرى « يا سيدتي » على حسب أغراض الكلام ومقتضياته ! وكيف كانت أسارير الشيخ تنبسط لهذا الحديث حيناً وتقبض له أحياناً .

فإذا كان الليل جعلته الخادمة ما ربيت إلى غرفة نومه بعد أن يتلقى من أبيه مسحة على شعره ثم قبلة من أمه . ولكنه ما يكاد يستقر في الفراش حتى يطلب أمه ، ولا يغتمض له جفن حتى تعود إليه فتقبله ثانياً . وكانت الخادمة مع ما عرف عنها من غلظة الطبع تضمه عندئذ ضمنها الشديدة وهي تتمم : « يا له من طفل عصبي ! »

هذه كانت حياة الطفل مع والديه . وظاهر منها أنسه بأبيه الذي لا خلاف في أنه أخذ عنه ميوله الفنية . وظاهر منها كذلك شدة شغفه بأمه الصبية التي رأينا تفقد حياتها النفسية قبل الزواج وبعده . كما أننا نلمس فيها جو المناقضات والمعميات والحواليج الخفية التي عاش فيها الطفل فنهت ولا ريب فيه ملكة التطلع والملاحظة والتحليل التي تناهت به

إلى غايتها الأليمة في مستأنف عمره .

في هذه الأسرة الصغيرة ، في اليوم العاشر من شهر فبراير سنة ١٨٢٧ وقعت على البغته مأساة . لقد خر الشيخ بودلير إلى جانب المصطفى ميتاً بالسكنة من أثر انفجار في أوعية المخ الشعرية .

وكان شارل لم يستوف السادسة من عمره ، وقد بدأ في هذه السن يعرف لأبيه شدة التعلق به والعطف عليه ، فهو يبادل الشعور ، ويمكن له من مشاعر الإجلال والمحبة البارة ما يشبه العبادة الحارة .

ونحن في غنى عن القول إن الطفل حزن على أبيه ، وصلى من أجله ، وردد كسائر الأطفال متعزياً أن أباه رجع إلى السماء . ثم كان من الطبيعي أن يجعل من بعده كل عزائه في أمه التي أصبحت كل شيء عنده ، كما كان هو كل شيء عندها . وهذه هي أمه اليوم تحتضنه أكثر من ذي قبل وتغمره بعطفها ، ثم هذه هي قبل أن تفارقه إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية لها تقتضى غيابها أسابيع ، لم تمالك نفسها أن أسمعته — وهي تبكى — أعذب ما قدر له أن يسمعه من تحبيب ونجوى .

وفي أثناء هذه الغيبة تولته الخادمة العجوز مرييت ، فبالغت في العناية به ، والحلب عليه ، وأسرفت في تدليله ، ومتابعته على ما يريد . لقد ملكته أمره ، فلا عليه ألا يرعى حداً ، ولا يؤدي واجباً ولا يحفظ درساً ، وهو وشأنه يجرى راكضاً على قدميه ، أو راكباً عجلته في عرصات الدار وحجراتها الواسعة المهجورة ، يتناول كل شيء وينظر في كل شيء ، ويفتح الأضابير المشحونة بالصور فينثرها على أرض الغرفة ، يتصفحها واحدة واحدة ، وهو كالنشوان ، وإنه ليكاد يذهل عن نفسه ، ويخرج عن حسه ، وهو يتأمل المجموعة المنقولة عن آثار مدينة هرقلية المهداة إلى أبيه من أوليائه الأولين ، والتي حرمت عليه أمه أن تمتد إليها يده ويقع عليها نظره ، لما تمثله من مناكر الأعياد والمراسم الوثنية .



نمط الجمال الكلاسيكي

بريشة الشاعر

طابت نفس شارل بهذه العيشة الطليقة ، فهو هاني سعيد ، فما هو إلا أن تعود إليه أمه فتبلغ سعادته منهاها ، وتستوفي غاية مداها ، وقد عادت الأم ، وكانت تخشى أن تموت بعيدة عن ولدها ، فتحول هذا الإشفاق منها على نفسها رقة له وحناناً عليه ، فضلاً عن أنه اليوم لا مهوى غيره لفؤادها ، فهو كل ما بقي لها . وكانت تقضى بعض أوقاتها معه في تعليمه اللغة الإنجليزية لغة أمها .

وبالنظر إلى ما صارت إليه مواردها بعد موت زوجها ، انتقلت إلى دار صغيرة أقل كلفة ، وفي هذه الدار الصغيرة ، ذاق شارل النعيم صغراً غير مرنق . فأمه اليوم تنظر إليه غير النظرة الأولى ، وتناجيه بصوت أشجى مما كان ، ولا تمل تقبيله وتدليله ، وهو قد استعذب منها هذا التدليل والتقبيل ، وتلقى متفتح الجوارح هذا الفيض المتوهج من هوى المرأة المكبوت . فاستغرق في هذا الجو العاطفي الذي انطبع أعظم انطباع في حسه المستوفز الباكر ، حتى ليدهش المتتبع لكتابات من أنه لا يذكر هذا العهد (عهد حنان الأم) إلا كما يذكر العاشق مواقف عشقه ومعاهد صباهته ، متلهفاً على تلك اللجنة الناضرة من صبوات طفولته ، حتى لنجده بعد ثلاثين سنة — في خطاب له إلى أمه — يشير إلى تلك الأيام بقوله « تلك كانت أيام نعيمى » .

ولقد تكرر منه في مستأنف حياته الحديث عما كان يحده وهو طفل ، من لذة في ملاسة ثياب الحرير التي كانت ملبس أمه الدائم ، وفي مصافحة الفرو الوثير الذي كانت تؤثره ، وفي شميم مساحيق زينتها ، وشذا عطورها . على أنه ليس من مقتضى ذلك أن تكون هذه الحال حجة على بواد الانتكاس في طبيعته ، ومثالا من الأمثلة على ما لم يفتأ يلوكه « فرويد » وأتباعه أصحاب المذهب التحليل النفسى في نظريتهم الرموز إليها بمركب أوديب (Edipus Complex) . فالأمر هنا لا يعدو

أمر معظم الأطفال ذكوراً وإناثاً ، فإن زينة أمهم الحبيبة توقع في نفوسهم أول اهتزاز للجمال ، وأول إعجاب به ، وهم فيما يجدون من ذلك متفاوتون بقدر إحساسهم وأطواره ، وليس من شك في أن يودلير كان من الأطفال ذوى الإحساس الباكر الذى يعز مثاله ، ولا تجرى العادة بمثله .

ولا يمنعنا هذا من القول ، بأن ذلك اللعب من الأم بمشاعر وليدها ، وذلك الاستحثاث لعواطفه نحوها ، من الأمور التى كان لها في متصرفاته في مقبل الأيام أعمق الآثار والمعقبات ، وليس يخطئ من يرد إلى ذلك الكثير مما دخل على طبيعة إحساسه وما صار إليه تطور مزاجه .

أول العهد بالحجيم

على قدر السعادة التي كان الصبي شارل مستغرقاً فيها ، كان وقع الفجعة التي نزلت بساحته ، والنكبة التي انصبت على رأسه من حيث لم يحتسب .

استقرت مدام بودلير وولدها أخيراً في دار ثالثة بموجب الاقتصاد في النفقة . إلا أنها لحأت من حر ذلك الصيف إلى بيت أبيض صغير ولكنه هادئ في ريف باريس . وكان للبيت جنيئة يستر بأغصانها تماثلاً ن عربانان من الحص ، أحدهما لربة البساتين والثمار والآخر لربة الجمال والهورى ، وعلى النوافذ أستار من الصوف الغليظ تضطرم في وهج الأصيل . والبيت الصغير مستكن بين الشجر كأنما هو عش لخلوة إلفين عاشقين . وكان الصبي أسعد ما يكون في هذه الخلوة بأمه ، محبوباً كالحب الغيور وإياها ، ممتزجة أنفاسه بأنفاسها ، يقضى الوقت متطلعاً في شتى الصور من مناظر طبيعية ومصورات جغرافية ، مسنداً ذقنه إلى راحتيه ، وإلى جانبيه الأرملة الشابة تطرز وهي صامئة مفكرة . إنها له .

وانقضى الصيف ورجعت مدام بودلير إلى دارها الأخيرة بباريس وقد اتفق أن كان يقطن إلى قريب من سكنها ضابط وسيم هو القومندان « أوبيك Aupick » ولا شك أنه جاز بها مرات في الطريق ، ووقعت في نفسه . فحياها ذات مرة فردت . ولا شك بانحناءة لطيفة برأسها أو ابتسامة خفوة ، ثم اتصلت بينهما المعرفة . وبدأ القلق يساور شارل من زيارات الضيف الجديد ، مشوق القامة في زيه العسكري ، متزن المشية ، تستقر عيناه الزرقاوان بالنظرة الطويلة الثابتة في عيني أمه . كمن له عليها سلطان .

وكان «جاك أوبيك Jacques Aupick» يمتدح إلى الأرومة الإنجليزية من ناحية أمه . فنهياً لكارولين أن تبادلته أحياناً بعض كلمات بالإنجليزية تفوت إدراك شارل وقتئذ . فهو يمتلئ من ذلك غيظاً ، ثم إنه يكاد لا يتعرف على أمه في محضر من هذا الضيف . فإن عاطفة جديدة تداخلها ، وتغير من هيئتها . فهي مع هذا الرجل غير ما كانت مع أبيه وغيرها معه :

وبالغ الضابط في ملاطفة الصبي ، ومحاسنته ، وإظهار أجمل المودة له . وأطرى عند أمه ذكاهه وحسن فهمه . ولكن هيئات . . . إنه يأنس فيه غريباً مزاحماً ، ونفسه تحدثه بأنه المغلوب على أمره ، وفي ذات يوم قالت الأرملة الشابة لابنها : « أنت الآن في كبير ، فكن عاقلاً كعهدي بك . إن من الأمور مالا تملك الأم إمضاءه على الوجه الآتم ، مهما يكن من حدبها على ابنها وسهرها عليه . وذلك لا شيء إلا أنها امرأة . فأنت محتاج إلى رجل يأخذ بيدك ، يرشدك ويقوم على تعليمك ويهيئ لمستقبلك . أنت محتاج إلى أب آخر » . وانتفض الفتى فاستدركت « إلى صديق . . . استدعو القومندان يا صديقي ، أليس كذلك ؟ تعاهدني ؟ وسوف يكون لك القومندان خير صديق » . قالت الأم هذا أو شيئاً قريباً منه . فلم ينفذ شيء إلى موضع الاقتناع من ابنها . فللصغار أحياناً إحساس غامض بحقائق الحب . فهو يحس أنها استجابت للضابط لأنها تحبه .

وفي الثامن من نوفمبر ١٨٢٨ ، أى بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً على وفاة أبيه ، عقد زواج أمه الشابة على الضابط الشاب جاك أوبيك ، فالصبي مهتاج ثائر النفس . لقد خائنته المرأة التي أحبها . لقد خائنته . وهو غيران ، غيران تأكله الغيرة من القومندان . وليس في هذا التعبير مبالغة . فإنه ليروى - فيما رواه من ذكريات - أنه في ليلة العرس نفسها استولى على مفتاح الحجارة المعدة للعروسين ، ومضى إلى حوض في بعض

المتنزّهات المجاورة ، فألقى فيه بالمفتاح ، وهو يجد في قلبه برد التشنج إذ يتمثل الحداد يستدعونه ليحتال على فتح الباب ، والزواج المحب ذاهب الصبر ملهوف ، والزوجة ممتعة مهمومة . . .

ولا يبعد أن تكون هذه الواقعة غير صحيحة ، ولكنها كانت على الأقل من خواطره وأوهامه . فهي على كل حال مرآة صادقة للألم الذي كان يحز في نفسه ، ويلعج فؤاده ، ويمزق حشاه ليلة الحادث . ويخطئ من يحسبه عرضاً يزول . إنه كان خطب الحياة عنده . فلم يعرف شارل بعده طعم الهناءة . لقد عرفنا الصبي شارل من قبل حساساً عصبياً مشوب العاطفة . وهو اليوم ذلك الصبي النفور المستريب ، الذي لا يطمئن إلى أحد ، القليل الكلام الطويل الصمت ، ذو الوسائس والبدوات . ومن الصبيان من يكون ذا شخصية غاشمة لا يطيق أن يرى نفسه مهملًا أو مزحومًا بشريك ، فلا بد له من الاستحواذ على من حوله والاستئثار باهتمامهم والتملك وحده على عقولهم وقلوبهم . فليس الذين يحبهم إضافة زائدة عليه ، بل هم جزء لا ينقسم من كيانه ، ومن هنا يأتي كثير من ثوراته وآلامه . لم يكن الصبي يتوقع أن يشاركه أحد في أمه بعد وفاة أبيه . فلما وقع ما لم يكن يتوقعه : وجاءه شريك فيها وأى شريك ، انطوت تلك النفس الصغيرة الغريبة على ما يشبه خيبة الرجاء في النساء ، فضلاً عن الشعور بالحزاة والنفور من ذلك الرجل ، ذلك المزاحم الغريم الذي غلبه على أمه ، وصرفها عن ولدها حتى كادت - فيما يصوره له وهمه - تؤثر على وجود ولدها عنده . . .

والقارئ يجد لا محالة صدق هذا الشعور المكبوت في مفتاح ديوان بودلير « أزهار الشر » في القصيدة الأولى التي تصف موقف الأم من ميلاد ولدها الشاعر ، تحت هذا العنوان الساخر: مباركة المولود Bénédiction

» لما حتم القضاء الذي لا راد لحكمه .

« وخرج الشاعر إلى هذه الدنيا العانية الكلياة برغمه
 « ريعت أمه ، وأخرجها السخط عن طبيعتها .
 فلوحت للسماء بقبضتها ، والسماء راثية لتكبتها » .
 « آه ، ليتني كنت قد ولدت وكراً كاملاً من الحيات
 ولم أكن والدة هذا المسخ دون سائر الوالدات ،
 ملعونة ، ملعونة بما كان فيها من متاع عابر ،
 تلك الليلة التي فيها حمايت بطني العافر .
 بمن كان ميلاده كالقصاص منى
 تكفيراً عن أكبر الكبائر .

* * *

يا رب ! ما دمت قد اخترتني من بين سائر النساء
 لأكون لزوجي الحزين مجلبة متاعب واشتمزاز .
 وما دمت لم أستطع أن أرمي في لبيب النار .
 بهذا الوليد المسخ الزنيم ، كرسالة حب قديم .
 فإن هذه النقمة التي ابتائتني بها .
 سوف أصيبها مضاعفة على هذا اللعين الذي كان أدامها
 سأقصف عود هذه الشجرة البغيضة .
 حتى لا تطلع براعمها المريضة .

في مثل هذا الموقف العصيب ، ماذا عسى كان يملك فعله هذا الوليد ،
 إلا أن يمتثل ، أو — على الأصح — يظهر الامتثال لزواج أمه ، شأن
 العاجز المغلوب على أمره .



الصبي وزوج أمه

ولم يلبث القومندان أوبيك أن استدعى في مارس ١٨٣٠ - في أواخر عهد الملك شارل العاشر - فيمن استدعوا للحملة الفرنسية على الجزائر ، فبقى بعيداً عن زوجته بعض الوقت . وفي أثناء غيبة الزوج في حصار قلعة الداي حسين ، انفرد شارل بأمه ، إنها لا شك كانت تستحي في محضر زوجها الثاني أن تلاطف ثمرة زواجها الأول ، أما الآن فهما وحدهما . لقد عادت كما كانت ، له وخده .

لكن ، هيهات ! فلقد حرّم آخر الدهر من اشتغالها به وتدليلها له . فهذه هي موزعة البال ، مستوحشة إلى الغائب ، تتبعه نفسها ويهفو في أثره قلبها ، ولم يفت الصبي أنها أقل انصرافاً إلى الزينة . لقد تغيرت الحال فإن أمه لا تطلب الزينة لذاتها ، وإنما لذلك الرجل تتصنع وتتجمل . وليس أبلغ في الدلالة على ما كان لتبرجها للرجل من لدغة غيرة في نفس الصبي لارقية لسمها ، ومن الحزازة التي لا تفتأ نارها ، والاستنكار المر الذي لم يخفف منه تعاقب السنين وكرها . . . من تلك الأبيات في قصيدة له نظمها بعد سنين عديدة :

« إني لأتمثل أمك ، يا وليد هذا العصر الحسيس ، القليل الخير .

« أتمثلها في حرصها على إصلاح ما أفسد الدهر .

« عاكفة على مرآتها تحكم الطلاء الأبيض على صدرها .

« ذلك الصدر الذي أرضعك » .

والمقطوعة كما نرى ظاهرة المرارة ، فاضحة التنديد . ولا شك في أنه استشعر الخجل منها ، لأنه لم ينشرها حتى عام ١٨٦٢ ، وكان نشره لها في إحدى المجلات حين أعوزه ما ينشر ، وألحت عليه الحاجة إلى بعض المال . ولقد كان بودلير يوافي أمه بنسخة من كل ما يؤلفه ، ولكنه أخفى عنها

المجلة التي نشرت هذه المقطوعة . ولما أن جمع شعره لم يفكر في تضمينها ديوانه ، وذاك ولا شك احتراماً لأمه التي ما برح - على غيرته وحزازته - يؤثرها ويحبها الحب كله ، ويرى فيها مثال المرأة التي كان يتطلع إليها ويودها لنفسه .

طالب علم

وأيا كانت الحال ، فإن الضابط أوبيك لم تطل غيبته ، فها كادت تنقضى بضعة شهور حتى عاد إلى زوجته ، وقد رفعت رتبته إلى كولونيل ، وجعل مقره في مدينة ليون ، فاستدعى ذلك نزوج الأسرة من باريس إلى تلك المدينة التجارية الصناعية العظيمة التي يخيم عليها الضباب ودخان الفحم ، والتي لم تلبث في عهد الملك البورجوازي لويس فيليب أن أخذت تكثر فيها إضرابات العمال وما تجره في الحين بعد الحين من الفتن والمصادمات ، فساهمت في القضاء الأخير على الملكية بعد سنوات .

وكان شارل بودلير قد بلغ الحادية عشرة وقتئذ (عام ١٨٣٢) ، وحل أوان دخوله المدرسة ليتلقى العلوم المقررة بعد أن أخذ طرفاً من المبادئ الأولية على أبيه في حياته ، واستأنف بعضها على أمه في أوقات قلائل غير وافية منذ زواجها بعد مماته .

فلا جرم ، يتخذ زوج أمه قراره في هذا الشأن ، فلم يكد يستقر في ليون حتى أسلم الفتى إلى « بنسيون ديلورم » تمهيداً لإدخاله المعهد في أول فرصة . وفي العام التالي ألحقه بالقسم الداخلي بالمعهد . وهنا رانت على نفس الصبى ظلال من الأسى مظلمة ثقيلة ، واستبدت به — على حد قوله — الشعور بأنه « مقضى » عليه أن يعيش مستوحداً مقطوعاً عن أهله طول دهره .

وكانت المدارس منذ عهد نابليون الأول تجرى على نظام شبه عسكري ، غير منظور فيها إلى توفير أسباب الراحة ، ثم تجاوز الأمر إلى عدم استيفاء النظافة ، وكانوا يأخذون النشء بالشدة ، ويوقعون بهم العقاب الجسدى لأدنى مخالفة . والشباب بما فيه من طبيعة الجذل

وسلامة العصب قد يكون له جلد على هذه المكاره . ولكن شارل كان على غير هذه الحال عصبيا سريع الغضب ساهر النعمة ثم هو يتساءل : ما باله أودع القسم الداخلى من المعهد ؟ وهذا مقام أمه غير بعيد من المعهد ، هذا المعهد الكريه الذى يسام فيه خطة لا تقل صرامتها عما يؤخذ به الهندى الثكنة . يهب من الفراش على قرع الطبل فى الخامسة والنصف ولم يستوف نومه ، وعليه أن يتم الاغتسال ويزيل عنه الوسخ باليسير من الماء ، وفى مثل طرفة عين . ثم إلى الدرس ، فإذا أخطأ — وهو لا بد مخطئ — فلا تسلم يده الخصرة المتورمة فى الشتاء القارس من ضربات العريف بمقرعة الجلد العريضة الغليظة .

وسبب هذا البلاء كله أوبيك زوج أمه . فهو يزداد كراهة لهذا الرجل كل يوم . وما من شك فى أن أوبيك لم يكن منطوياً للفتى على النيات السيئة التى يدينه بها . وكل ما فى الأمر أن أوبيك جندى يؤمن بما فى التأديب وترويض الطباع من نفع وإحسان . ولا يبعد أنه كان جانحاً إلى محبته بادئ ذى بدء . وعلى كل حال فقد كان شديد اليقين بأنه يعمل ما فيه الصالح لابن زوجته ، وأن هذه هى الخطوة القويمة لتربية النشء . وأنى لأوبيك أو لغيره أن يدرك أنه بإزاء نابغة يخرج على المألوف ويشد عن القاعدة . وفوق هذا فإن أوبيك بعيد بطبعه عن فهم أمزجة الفنانين وتقدير هذا النوع من النبوغ .

وكان شارل يحاول التنفيس عن نفسه ، والتشاغل عما يرين على صدره ، ويأخذ بكظمه من شعور بإهمال أهله . فهو يتضارب وزملاءه ويتشاحن مع أساتذته ، وفيما بين هذا وذلك تبخيم عليه كتابة ثقيلة الوطأة . والقارى لخطاباته فى ذلك الحين يجد فيها استرسالاً وذلاقة لسان ، وسخرية مازجة وطلاقة وخلو بال . وهذا كله ظاهر يخالف الباطن . وسبب ذلك ما طبع عليه بودليير من كبرياء وعزة نفس . فليذكر قراء بودليير ذلك جيداً ،

وليدخلوه في حسابهم ، وإلا خدعهم عن نفسه . وليفطنوا إلى ما في تضاعيف لفظه ، ولا يفوتهم ما بين السطور ، بل ليذهبوا إلى حد السماح له أحياناً بأن يكون مفهوم كلامه عكس منطقته .

ولم يظهر بودلير نجابة إلا في الترجمة اللاتينية واليونانية وفي الرسم ، ولم يخل من اهتمام بالتاريخ الطبيعي . ولكنه كان في الجملة كسولاً ، شارد الفكر ، أو على الأقل متفاوت الانتباه لما يليق من الدروس ، لا قدرة له على حصر ذهنه في موضوع يفرض عليه فرضاً ولا يكون له فيه اختيار .

وكانت مدينة ليون بغيصه إليه . فهي عنده كالحاء عبراء مرحومة الفضاء بمدخن أفراسها وأبراج كنائسها ، مقففة من الزمهرير لقيامها عند ملتقى نهري الرون والساؤون . فهو قد مل بها الإقامة وأضنته السآمة . وفي هذه الأثناء قامت في ليون سنة ١٨٣٤ ثورة العمال ، ونصب الثوار المتاريس في وجه العسكر . وكان الفتى يسمع تكتكة الرصاص من بعيد في هذا الليل ، وهو ورفاقه في مضاجعهم بقاعة النوم . ولا شك في أن الفتى كان يتوقع في وهمه أن يصاب أوبيك في هذا الشغب ، ويتنظر محموراً من الفرح أن يأتي الصبح بخبر مصرعه .

وأعقب ذلك أن نقل الكولونيل أوبيك إلى هيئة أركان الحرب في باريس سنة ١٨٣٦ جزء له على حسن بلائه . وكان شارل حين قدم باريس معه قد استكمل الخامسة عشرة من عمره . وهنا أسلمه زوج أمه

إلى « معهد لويس لجراند Collège Louis-Le-Grand »

ويدلنا على مبلغ ما كان يعانيه الفتى أن عينيه لم يعد لهما ذلك البريق ، وكان يرى الناظر إليه صديق الأضلاع فوقه رقية معروقة ، يعلوها رأس ضخم — مثل هامة الأجنة — فيه معنى شيطاني وإلهي معاً ، ويجلله شعر أسود ، من تحته وجه شاحب . قال الكولونيل لناظر المعهد وهو

يقدم إليه شارل : « سيدى ، إليك هدية أتحنك بها - إليك تلميذاً يشرف به معهدك » .

والحق أن هذا الرجل المتشدد لم يكن بالمعلق الحس بحيث لا يتوسم ما فى الفنى من ذكاء . فهو عارف حق المعرفة لنهاية عقله ، وإن كان قد غمَّ عليه فهم نفسه . ولا نعى بذلك قيام مشاركة عقلية بينهما ، فإن عقليهما أفتان لا يلتقيان . وإنما نعى أن الكولونيل كان يأنس فى الفنى نضجاً باكراً ، ومواهب عقلية نادرة . ولعل فى بعض الجوائز فى الشعر اللاتينى والترجمة اللاتينية التى نالها الفنى ما ثبت يقينه فيه ، فأخذ يعقد عليه من الآمال ما يرضاه ويبنى له مستقبلاً على هواه .

ثم إن شارل لم يكن ليتأصب أويلك ويكابره مجاهرأ ، علماً منه بضعفه وقلة حوله . فهو كاظم غيظه ، ممسك على ما فى نفسه حتى إذا خلا إلى أمه نفس عن صدره ببوادر من السخرية .

ويؤخذ من كلام رفاقه أنه كان فى طبعه عرام وحدة ، وأنه كان متبجحاً متصلاً ، مهوساً متهوراً . بيد أن أصحاب الفراسة منهم فطنوا إلى أن فى قرارة نفسه التكبر والاستخفاف . وبلغت النظر من شهادة مدرسيه كلام معلم التاريخ عما كان ظاهراً من سوء إقباله على هذه المادة وكراسته لها ، وما كان يبدو من اقتناعه بأن التاريخ شئ ليس وراءه طائل ولا فائدة منه . ثم قول معلم البلاغة إنه كان لطيف الفهم ، ولكنه غير جاد ، وإن عنده ملكة الإبداع والاختراع حين يريد ، وليس عنده ما يجب من الرصانة والأناة للبحوث الشاقة الجلية ، ثم إنه سريع الخاطر ، بارع البادرة مع شئ من فساد الذوق .

وكان يقابل بالزراية البالغة بعض الأفكار المقررة والأحكام اليقينية يرددها أصحابها بلهجة قاطعة موقرة ، ولم يكن شئ ينشط له ويستخفه إلا الشعر . وكان يورد فى كل مناسبة شعراً للشاعرين فكتور هيغو وتيوفيل

جوتيه ، إلا أن هناك ديوان شعر كان يقرؤه في الخفاء ، ولا يفضي إلى إنسان بأثره في نفسه وموقعه من حسه. وذلك ديوان سنت بيف. وقد جاء على لسانه بعد سنين قوله : « كان سنت بيف آفى » . وينصرف هذا إلى شعر سنت بيف وإلى نثره كذلك. فإن الفتي المراهق أسكرته منه قصة (اللذة) التي روى فيها المؤلف قصة حياته الغرامية . ومعنى هذا أن بودلير الشاب كان غير منساق مع الذوق العام وإن تظاهر بذلك لأقرانه ، وأنه كان يلتبس فناً جديداً يرتاض به ويعمل على حذقه .

وقضى بودلير حياته المدرسية كما رأينا بعيداً عن التأثير بمن حوله ، فهو يكاتم الجميع معظم أمره ، ويخضعهم عن حقيقة سره . وكذلك كان طوال حياته ، فلم يجب أحداً إلى حد نسيان نفسه . وما كان له قط أصدقاء ، بل رفاق ، وأما أساتذته فلم يجد لهم غير الكراهة ، ولم يكن لواحد منهم تسلط عليه ، ولا لتعليمهم فضل في تنشئته ، وإنما نشأ وحده وتخرج على نفسه .

وقد قرأ بودلير في هذه السن إلى جانب قصة (اللذة) قصصاً أخرى لا يليق بالصغار قراءتها نذكر منها (الراهبة) للكاتب الفيلسوف ديدرو ، وكانت قصص العشق هذه تسهويه بقدر ما يكون فيها من هول الإثم والاجترأ على المحرمات وتعدى الحدود . فهنا ، حيث عذاب النفس واليأس القاتل واللعنة الأبدية ، تهتز مشاعر الفتي اهتزازاً لا يعدله إلا اهتزازها لقراءة خواطر « بسكال » الروحية التي كتبها في سنوات مرضه الأخير وهو يغالب حيرة عقله في أمور الدين ويتوجه إلى الله بقلبه مستلهماً الإيمان مستفتحاً أبواب اللاهثية : وهو مرتجف الحس فائض النفس .

وما برج هذان هما القطبين اللذين دارت بينهما حياة بودلير حتى آخر عمره وصلبر عنهما شعوره وشعره .

وفي سنة ١٨٣٧ اصططحيه أوبيك وأمه إلى رحلة للتره في جبال البرنيه ، فعاد منها الفتى بقصيدة عنوانها « تنافر » (Incompatibilité) وصف فيها منظر هذه الجبال الجرداء ، البعيدة عن حركة العمران وعن خضرة الزروع ، وترجم فيها عما وجدته من شعور بالوحشة والوحدة . ولعل في عنوانها إشارة إلى عدم الامتزاج في الذوق والمشرب بينه وبين صاحب الرأي في الرحلة وهو زوج أمه .

فالفتي بودلير آخذ في نظم القريض . ولكن من المحقق أنه لم يكن بطلع الضابط على شعره ، فهو يعلم أنه أمر لا يسره . ولعله لم يكن يطلع عليه أمه ، فإنها وهي المتورعة المتهمة كانت تجفل من ميول ابنها الأدبية . فإذا خطر له أن يحادثها حديث الأدب ، أخذت عليه السبيل وعدت على الأمر في غير احتفال ، بحسبانه جهالة كغيرها من جهالات صباه ، لا تلبث أن تنقض حين يدرك رشده .

ثم هي لا تملك نفسها من التعجب لهذا الولد العجيب في حنانه وفي قسوته . أما كان الأخرى به أن يطيب نفساً ويقر عيناً ، ويحمد الأيام أن قيضت له رجلاً مثل أوبيك — رجلاً محمود الشئائل حر الخلال ، قادراً على تحقيق مصلحته ، ودفعه في طريق المناصب ، وترشيحه للمراتب . الاجتماعية الرفيعة . إنها لتأذى وتألم حين ترى ابنها يتهانف ساخراً — في ساعات ضيقه واحتياج عصبه — من صورة المستقبل البهي الزاهر الذي يرسمونه له . وكانت الحال تتخرج حين يند الفتى عما يتكلف لزواج أمه من موقف الابن المطيع ، فينبس بكلمة تفتح عيني الرجل على فرجة من قرار هذه النفس المضطربة . هنا تجهش مدام أوبيك وتغشاها نوبة عصبية . ولا تسل عما أصاب المسكين حين طرد شارل من معهد لويز بلراندي في إبريل سنة ١٨٣٩ . فقد تلقى أوبيك تبليغاً من الناظر بطرد الفتى . وأما علة الطرد فقد خلت منها سجلات المدرسة . وقد يكون ما أتاه الفتى

كبيرة من الكيائير . ولكنه لا شك أيضاً فى أن لنقمة الأستاذة عليه دخلا فيما رتبوه على ذنبه . واشتد أوبيك على شارل . وفى هذه المرة طأطأ الفتى من إشرافه ونكس رأسه . إن طرده من المعهد رج كيانه وزلزل أركانه ، لقد تملكه الفزع مما أتاه . فهو يكتب إلى أمه أنه «يخشى ألا يجد سييلا إلى التعليم» . لقد زابلته ثقته بنفسه وساورته المخاوف من الحياة . أما أوبيك فقد بلغ من غضبه أن جرى على لسانه ذكر إصلاحية الأحداث . ولكن الفتى نادى أشد الندم ، مستغفر من ذنبه ، ملتمس الصفح والغفران . ودخلت الأم متشفعة ، وهى عند زوجها مقبولة الشفاعة . فعدل إلى إنظاره واعتمد رأياها فى إهماله فترة ، والإملاء له فى الفرصة . وكان أن عهد به إلى أستاذ معيد للفلسفة يقيم عنده ويتجهز تحت إرشاده ورهن إشرافه لامتحان البكالوريا . وكانت الأسرة مما تعافه نفس بودير . فهى أسرة يسودها العقل والحب والاعتزان ، لا يستطيرها غضب ولا يغلو بها طرب . وهو لذلك ضيق بهم ، كاره لمقامه بينهم . شديد الملل . ولكنه مع ذلك أقبل على العمل وتقدم للامتحان ونجح . فكان أول همه أن طير الخبر إلى زوج أمه . وبهذه المناسبة هنأه بما قرأ عنه فى الصحف عن ترقيته إلى رتبة جنرال .

وعاد شارل إلى المنزل ، ولكنه لم يكد يضع فيه قدمه ، حتى قامت من جديد مسألة المستقبل الذى يرشحه له أوبيك . فإن أوبيك يعلل النفس بأن يدخله السلك السياسى وأن يراه ذات يوم من رجالاته . ولكن الفتى كان مصمماً على خلافه . فقد أجمع عزمه على ألا يطالع وحياً غير وحى شيطانه . فأعلن أنه اختار لنفسه — دون سائر المهن القويمة المكيئة — مهنة الأدب وإن تكن غير مضمونة ولا مأمونة . فلما أعلن شارل رغبته فى الاشتغال بصناعة الأدب ، كانت صدمة لأوبيك ، بما فيها من تخييب أمل ومخالفة عزمه . ولم يبق عنده شك فى حماقة الفتى وجنونه ،

فهاج هائج وثار به حتى رماه بالفسولة والصعلكة . ونسى الفتى نفسه أثناء المشادة ولم يحكم ضبط أعصابه فقامت بينهما جلبة ، وبلغت الحدة بزواج أمه أن تجاوز - في قول بعضهم - إلى حد التهجم باليد على الفتى . وتدخلت الأم المسكينة كالعادة . ولزمت الفراش من أثر ذلك أياماً . وأخيراً تشفعت الأم لابنها ونجحت في إقناع زوجها بإفراح الوقت للفتى حتى يفكر . لقد عاش ابنها السنين الطوال في دور التعليم رهن التضييق والنظام الدقيق العقيم ، فلعله في حاجة للاستجمام والترويح عن النفس . ثم هو بالغ عن قريب سن الرشد ، والأحرى أن تطلق له بعض الحرية قبل أن يصبح صاحب التصرف المطلق في ماله ، وفي مستقبل حاله وما له .

فأرسله أوبليك يقضى فترة في باريس في نزل اختاره .

فى باريس

كان التزل الذى اختاروه للشاب بودلير مما يتزل فيه الفتيان القادمون من الريف للدراسة فى باريس ، والمقصود به أن يشعروهم أنهم فى مثل أسرهم وإن يكن التشبيه فى الواقع جند بعيد وفيه تجاوز كبير . ولم تكن هذه الدور بالموضع النزه المريح . ولكن ماذا يعنى الشاب بودلير من نزهة المكان وراحة المثوى ومذاق الطعام ؟ بل ماذا يعنيه من شمائل السكان أنفسهم ! إن الشبان فى الثامنة عشرة ليهون عليهم ذلك ، إذا هم نعموا بالحرية . فلا عجب ألا يشتكى الفتى بودلير من وضاعة غرفته - وإنه لقليل المقام فيها ، ولا من تفاهة الطعام - وإن أغلب عشاءه فى الخارج وكثيراً ما يلهو عن عشاءه . هذه أمور لا وزن لها اليوم عنده . إنه فى أحضان باريس ، المدينة ذات الوجوه المتعددة ، المدينة التى فيها كل شىء حتى القبح يتقلب سحراً ، ثم إنه يستطيع أن يكون هو على حقيقته . يستطيع أن يفرج عما ينطوى عليه شخصه من شغوص عدة ، أن يكون الساعة غير ما كان قبلها وغير ما يكون بعدها ، أن يكون هذا الشىء ويكون نقيضه أو يكونهما معاً - فذلك شأن الشاعر وقصارى حظه دون غيره .

لقد كانت أمه حسنة الإيمان متدينة ، وكان زوج أمه يحرص على حضور القداس . ولعل ذلك ما أحدث فى نفس بودلير عكس الأثر . فماسبيل الناقم المتسخط إلا المخالفة . فإلى أين إذاً يمضى هذا الفتى المنطوى على نفسه ، السابح فى الأحلام ، المترفع المتأق ؟ إن الشباب ملء إهابه ، والمال منهى فى وطابه ، وله حساب مفتوح عند الحائلك وصاحب القبعات وبائع الأحذية . لا تراه إلا قشيب الثياب ،

معطر الأردن ، محتفلاً بهيئته وزينته . وبالجملة هو متحذلق من متحذلقة السمات والهندام . وكان قد اتصلت الأسباب بينه وبين شباب الأدباء في الحى اللاتينى ، وانضاف به إلى مقاهى الضفة اليسرى عميل طارئ وضيف جديد سرعان ما صار معروفاً ملحوظاً لفرط أناقته وبسط يده بالعطاء .

وإلى هنا لا بأس ولا حرج . ولكنه لم يقف هنا . فشمة النساء . ولعلنا كنا نقول إن شأنه في هذا أيضاً شأن سائر الفتيان لولا أن شارل بودلير اتجه إلى شر النساء . لقد كان في إمكانه أن يهوى عذراء من الخرائد الحسان ، أو يتعلق أرملة خوداً في نضرة العمر ، أو يتصل بغير ذلك من صنوف الغانيات المحترمات . ولكنه لم يتجه إلى الناحية الوجدانية الرقيقة ، ولم يترع إلى المتعة الحسية الصحية ، ولم يطلب ما يطلبه الفنانون من حسن الشكل واستواء الخلق وتناسب القد والتقطيع . وإنما دب إلى المباءات الفاسدة يتطعم شر مذاق للإثم مع الوضاعة والفقر والقبج والمرض .

وكان بودلير يقرأ على أصدقائه الأدباء من شباب الحى اللاتينى ، وغيرهم ممن عقد معهم صداقاته الأدبية الأولى ، ما كان ينظم وقتذاك من مقطوعات غضة قوية ، مستحدثة عصبية ، مستغربة الأصالة ، ثم على ما خرج به إلى الدنيا شاعرنا الشاب ، من العقد النفسية ، وسوء الظن بالطبيعة البشرية ، وعدم المبالاة بالعرف والمواضع الأخلاقية .

ومن الشواهد على ذلك قصيدته في سارة اليهودية ، أو كما يسميها الحولاء La Louchette التى تعد مثالا على الفتيات التى كان يغشاهن ، وإن جاءت معرفته بها متأخرة عن غيرها وقد نشرت هذه القصيدة في مجلة « فرنسا الفتاة La Jeune France » وكان بودلير حين نظمها في العشرين أو نحوها :

« ليست من الغانيات الناهيات خليلتي »

« وإنما عن نفسى أخذت فتنّتها كما تؤخذ العارية
« تقتحمها عيون المستخفين وهى غير مبالية
« ولا يزهو لها جمال إلا فى مهجتي العانية

* * *

« من أجل حذاء تلبسه فى قدمها باعت روحها .
« وإن الإله الرحيم ليستزى لى لو أنى استهزأت بها
« واتخذت بجانب هذه المفضوحة سمت التورع وتظاهرتُ

بالترفع

« وأنا مثلها أبيع فكرى راجياً أن أكون مؤلفاً

* * *

« والأدهى فى أمرها جمعتها المستعارة
« فقد انحسر شعرها الفاحم الجميل عن بياض قفاها
« فلم يكن ذلك بمانع محبها
« أن يهوى بالقبل على جبينها الأملس كإهاب الأبرص

* * *

« هى حواء . ولكن نظرتها الغريبة الخالكة
« تحت سواد أهدابها الوطفاء كأهداب الملائكة
« جعلت جميع الأعين الفتانة النجلاء .
« لا تعدل عندى هذه العين اليهودية المدبوغة الحواء

* * *

« صغيرة لا تتجاوز العشرين ، ومع هذا فإن ثديها

« مسترخيان يتدليان على جانبيها
« وكثيراً ما خلا من درهم كفها
« فلم تجد ما به تحك جلودها وتذاك كتفها

* * *

« والمسكينة عند الانفعال مقطوعة النفس مبهورة
« يأخذها الفواق وتكظ صدرها الحشيرة
« وأكبر ظني ، وأنا أسمع شهادتها المخرجة
« أنها نزلت ضعيفاً على المستشفى مراراً كثيرة » .

ولقد جنت على بودلير هذه العشرة جنائيتها . فلم يلبث أن أصابه
الداء الحبيث . وقد ألمع إلى ذلك بعد سنوات عدة في خطاب إلى أمه .
ولا نعرف على وجه التحقيق كيف كان شعوره ، وهو في العشرين من
عمره يجد نفسه مؤثماً ملوثاً ، ولكننا نخال أن شعوره كان مزيجاً من الارتياح
والرضى ، فذاك لا يتسق مع الذي عرفنا من مزاجه ، وليس أدل على هذه
الحالة النفسية من أنه كتب في ذلك الحين بيتين من الشعر على نحو ما يكتب
على القبور ، وكان هو المقصود بهما ، وهما يجمعان بين التفجع الأليم
والضحكة الساخرة الصفراء :

« هنا يرقد رهين العفاء
« من جنى عليه التولع بأحط النساء
« فنزل حديث السن غض الصبا
« في قاع مظلمة كجحر الخلد في جوف الثرى » .

ولا شك في أنه من الدوافع التي دفعت بودلير إلى هذه الحياة
نزوعه لإتيان الغريب والاجترأ على المسهجن ، وانجذابه إلى المكامن

المظلمة الغامضة بحافز الفضول والإغراق في الاستطلاع والتحليل ، وإيمانه إيمان معاصره الروائي « بلزاك » بأن النفس الإنسانية كثيرة الشباب ، معقدة الأسباب ، مختلطة العالى بالسافل ، واتخاذها مثله موقف العالم الطبيعي الذي يعنى بدرس الجميل والقيبح ، والخير والشر على السواء . ولعله وراء ذلك كان يجد بعض الشفاء لتقمته على أمه فيما يجتمع له في هذه التجارب من الشعور بحقارة المرأة .

على أننا نخطئ إذا قام في خللدنا وتصور في وهمنا أن بودلير كان مرتاح النفس إلى هذه الحياة المنحطة التي يحياها ، فإن التقرير العين ، الطيب النفس بما هو فيه ، لا يجري على لسانه مثل هذا القول :

« كنت في بعض الليالي مع يهودية نكراء

« وكأنا كنت جثة ممددة إلى جانب جثة ،

« فأنشأت قرب هذا الجسد المبدول

« أفكر في الجمال الحزين الذي حرّمته » .

فهناك إذا ما يقصر الفتى على هذا المتاع الرخيص . ولكنه الكاتم لسره ، المغلوب على أمره . وكل الذي نعلمه حتى الساعة علم اليقين ، أنه لم يكن فيما انغمس فيه مستغرق الحس ، مشبع النفس ، بل كان في أحضان الإثم الشائن ، يهفو للحب الصادق العظيم ، ويحلم بالجمال الرقيق الحزين . ومهما يهوى في درك الوهدة ، فإنه لم يبرح متطلعا إلى أعلى .

وكان من العسير على شارل وقد تقلب في هذه الحياة المخلوعة العذار ، وزادته الأوساط الفنية اندفاعاً للتفكير الطليق من كل اعتبار ، أن ينسجم كثيراً أو قليلا في بيئة كالتى يعيش فيها والداه . فلا جرم نراه ضيق الصدر ، غير منبسط النفس ، في تلك الولاثم الرسمية التي كان يقيمها زوج أمه ، والتي كان يحضرها كارهاً ، ويستمتع إلى أحاديثها الغثة

متبرماً . وحدث في بعض هذه الولائم وأعصابه جد مهتاجة ، أن أقفلت منه عنانها فغضب على بعض الكلام تعقيباً ساخراً . فأذكر عليه أوبيك وأغلظ النكير . وساد الوجوم على المدعوين . وهب الفتي ممتنع اللون من الإهانة ، وقال وهو في أشد الغضب ، متكلفاً كمألوف عادته الأدب « سيدى ، إنك لم ترع حرمى ، وأخطأت أكبر الخطأ فى حقى ، وهذا يستوجب الجزاء ، وسيكون لى شرف خنقك » فلم يمالك الضابط الكبير فى حلة التشريف الفاخرة إلا أن صفعه . واضطربت المقاعد وعم الدهول وارتجى الفتي على الأرض فى نوبة عصبية شديدة .

وقد كان من جراء ما انسافت فى تياره حياة بودلير الخاصة ، فضلاً عن هذا المسلك المستهتر الذى بدرت بوادره من الملاء على المجتمع ، أن انزعج الجنرال أوبيك زوج أمه أشد الانزعاج ، وخشى على نفسه من هذه المواقف والشطحات وما تؤدى إليه من سوء القالة التى تمس ولو من بعيد ما بلغه من رفعة الرتبة وجاه المنصب ، فعمل على عقد اجتماع للأسرة .

وبعد أيام كان مجلس الأسرة منعقداً وفيه الدوق فيلكس من آل براسلين أصدقاء والد الشاعر وقد قرأ رأى المجلس على أن يرحل الفتي بعيداً عن عشراء السوء فى رحلة طويلة ، واعتمدوا لها خمسة آلاف فرنك من ثروة الفتي القاصر . فما برحت الأسفار - على حد قول أوبيك - أصلح تنشئة للصغار .

الرحلة إلى الشرق بين أفريقية والهند

فى التاسع من شهر يونية سنة ١٨٤١ أفلعت من ميناء بوردو الفرنسى الواقع على ساحل المحيط الأطلسى ، مركب عليها اسم (بحار الجنوب) Paquebot des mers-du-sud وفى هذه المركب كان شاعرنا بودلير ، وقد أسلم إلى قبطانها « ساور Capitaine Sauv » الذى كان صديقاً قديماً لزوج أمه ، وكانت وجهة المركب بعيدة تقتضى الطواف حول أفريقية إلى بلاد الهند ، قاصدة على وجه التخصيص كولومبو عاصمة سيلان ، ثم كلكتا عاصمة البنغال .

ولقد ارتضى الفتى هذه الرحلة بعد تمنع ، لما رآه من حماسة أديب صديق له من هواة الأسفار الحالمين وهو «جيراردى نرفال Gerard de Norval» ولا شك أن كلمة الهند وحدها كان يكفى وقعها فى سمع هذا الصديق الملهم الخيال ليتمثل فى ذهنه مناظر ساحرة الروعة عجيبة الجمال ، وفنتة فى هذه الآفاق النائية وراء ما يتصوره وهم لإنسان . فلا عجب أن كان بودلير ساعة الرحيل على شىء من الرضى والبشر . ولكن هذه الحال لم تطل مدتها . فما لبث يوماً أو بعض يوم حتى ضاق بهذه الرحلة وركبه الملل ، وحن إلى ندمائه فى باريس وفنون أحاديثهم .

ولم تكن أسباب الراحة متوافرة فى ذلك العهد . وكان الفرق لا يكاد يذكر بين حال المسافرين والملاحين . وكانت المشاركة عامة فى الطعام والمنام والمغسل بين أفواج الركاب . وفى ذلك ولا ريب ما يضيق به فتى رقيق أنيق مثل فتانا بودلير . ولكنه كان أشد من هذا ضيقاً بالمسافرين

أنفسهم . فقد كانوا — كما لا بد أن يكونوا — خليطاً من تجار المستعمرات ورجال العسكرية ومعهم نساؤهم وأولادهم . وطبيعى أن الحديث الذى يدور بين أبناء هذه الطبقة الوسطى (البورجوازية) بمسمع منه لا يعدو الشئون المعاشية ، والنوادر التافهة العامة ، والاعتبارات الخلقية العرفية . فامتلات نفس شاعرنا الباريسى احتقاراً لهم وحزاة عليهم . فصار يجد لذة شيطانية فى إتيان ما يستهجنونه والاستهزاء بما يعتقدونه . وقد زاد فى ارتياحهم أن يصدر هذا عن فتي ناشئ فى سن أبناهم فلم يزد استيحاشهم منه إلا تمادياً فى موقفه وعناداً . وكان القبطان — كما أسلفنا — صديقاً قديماً لزوج أمه ثم هو طامع يوماً فى الاستعانة بجاهه ، فكان يبذل وسعه لمرضاته والتسرية عنه ، وقد خطر للقبطان فيما خطر بادئ الأمر أن يوصى ابنه بملازمة بودلير فى غدواته وروحاته ، فهو فتي من لداته ، فكان حظه من الزرابة وسوء المعاملة فوق حظ الآخرين .

وقصارى القول أن بودلير كان فى السفينة مستوحداً منطوياً على نفسه مستغرقاً فى الكتابة والوجوم . وقد اشتد للعودة حنينه .

وعاجت المركب بجزائر الرأس الأخضر المحاذية للشاطئ الأفريقى عند السنغال للترود بماء الشرب ، وأقامت يوماً ، ثم رفعت مراسيها ومضت توغل جنوباً وقد شارفت خط الاستواء ، وأصبحت حرارة الجو تلهب الأعصاب وتزهق الأنفاس .

وكان يقطع اطراد الرحلة : وسياقها الرتيب ، ما يقع للنوتية من عجائب الصيد . من ذلك أنه اتفق لهم ذات مرة حوت من خنازير البحر اشتغلوا بصيده . وقد اقتطع منه طبياخ السفينة قطعة صالحة جعلت لطعام اليوم طرافته . وما بنا أن نورد الحكايات من ذلك القليل ، ولكننا نخص بالذكر واحدة . فقد وقع للقبطان فى عصر بعض الأيام أن أصاب بطلقة من بندقيته طائراً عظيماً من طيور البحار الجنوبية كان محلقاً فوق

صواري المركب . فهوى الطائر على ظهر المركب حيناً إذ أصابه الرصاص في جناحه دون سائره فشدد الملاحون ساقه بخيط طويل ! وتركوا أسيرهم يندلف على سقائف السفينة .

وكان الطائر عظيم الجرم لا يقل عرض جناحيه عن اثني عشرة قدماً . وكان الملاحون يعاكسونه ويستفزون به ليتفرجوا بالنظر لهذا الطائر العظيم من طيور الفضاء يمشى على أرض السفينة على قدميه متخطياً في مشيته الخرقاء ، مجرراً جناحيه الطويلين ، على صورة جمعت من المفارقات ما جعله على ظهر السفينة ملهى ومعرض استهزاء . فكان يضحك لمرآه جميع من بالسفينة ، ويضحجون بالضحك عدا بودلير . ولعلنا نلمس موقفه وكنه شعوره وقتذاك في هذه القصيدة الفريدة في موضوعها التي نظمها بعد سنوات من عودته بعنوان « طائر القطرس L'Albatros »

« كان الملاحون كثيراً ما يلهون
« فيقنصون طيور البحر العظام
« وهي تابعة مستسلمة مسترساة كرفيق الطريق
« في صحبة السفينة المنسابة فوق لجج الخضم السحيق .

* * *

« فما هو إلا أن هوى بعضها على أرض المركب
« حتى رأينا هذا الملك من ملوك الأجواء في حال شوهاء
« وأجنحته البيض الطوال مسلوحة الكبرياء
« يجرها إلى جانبيه كالحماذيف .

* * *

« ذلكم فارس الهواء ، ما أسمع ما صار إليه ، وما أهونه !

« ذاك الذى كان مرموق الأبهة ، ما أقبحه ، وأدعاه للتفككة .
« والقوم من حوله ، بعضهم يمس بقصبة التبغ منقاره مضيقاً
« والبعض يتعارج محاكياً هذا الكسيح وقد كان محلقاً .

* * *

« كذلك الشاعر ، أشبه الأحياء بأمر الأجواء
« يقتحم العواصف ولا يبالى الرماة وهو فى أوج السماء
« ولكنه على الأرض غريب طريد ، ومعرض استهزاء وهوان
« يمشی متعثراً الخطو ، يعوقه عن المشى ، جناحاه الجباران»
وأخيراً بعد أن استوفوا حظهم من الضحك أجهزوا على الطائر .
وجعل منه الطباخ فطيرة ليوم اجتيازهم لخط الاستواء ، وهو من الأيام
التي يحتفلون بها ويتجهزون لها بالطعام والشراب .
ولما بلغت المركب أقصى الجنوب عند رأس الرجاء الصالح ، هبت
عليها عاصفة هوجاء قال عنها القبطان فى تقريره « إنها حادثٌ من أحداث
البحر لم يمر به مثله فى مدى الحياة الطويلة التى قضاه فى البحار »
وظلت السفينة خمسة أيام وخمس ليال تتقاب ظهراً لبطن بين طوامى
الأمواج ، وقد غمر الماء غرفها ، واستولت على ركايبا رعدة الخوف والبلل .
وفى هذه الحال الرهيبة كان بودلير كالعهيد به لم يفارقه تكلف الأدب
ورعاية مراسمه . وذلك أن أمر الفتى ليس كله تظاهراً وجعجعة ، بل
فى نفسه وثاقة وصلابة ، ولقد أثنى القبطان فى كتابه - وهو المعروف
بجلده وشجاعته - على ما أبداه الفتى من ثبات جنان ورياسة جأش .
أملا بودلير ، فإنه لم يشر أية إشارة إلى هذا عند عودته .
وكان قد انقصف أحد الصواري وطاح مع بعض الشراع إلى اليم .
فلما أن سكن الإعصار وصحا الجو ، أخذت السفينة المهيضة تشق

صُرفَها حتى دخلت المحيط الهندي ، ومرت بجزيرة مدغشقر وتجاوزتها ، ثم توقفت وألقت مراسيها بجزيرة موريس . وكان دخول السفينة فرصتها في اليوم الأول من شهر سبتمبر بعد ثلاثة وثمانين يوماً من السفر في البحر .

وبينما كان العمل جارياً في إصلاح السفينة كان مقام المسافرين جميعاً في الفندق الوحيد بالمدينة . وكان بودلير محققاً متسخطاً ، لعدم استطاعته التخلص من صحبتهم ، وهي عنده أدهى وأذكى من البعوض ينهشه ويعذبه . على أنه وجد بعض الراحة في صحبة أفراد من المتطوعين الفرنسيين في الجزيرة ، وهم معظم الجالية الأوروبية بها على الرغم من دخولها في حوزة إنجلترا في أثناء الحروب النابليونية . وقد توثقت الألفة بينه وبين آل « براجار Antard de Bragard » خاصة ، فكان يختلف إلى دارهم أكثر الوقت . وكانت مدام براجار رائعة الحسن ، وما يجدر بنا ذكره لزيادة التعريف بها أنها كانت لها ابنة تزوجت بعد سنوات فرديناند دى ليسبس . وكان مجلسها لا يخلو من بعض المتأدين والمشتغين بنظم القريض . فانفسحت لبودلير فرجة للكلام في الأدب وما استحدثت بباريس من مذاهب واتجاهات ، ولا شك أنهم فهموا من كلامه أنه يتعاطى الشعر ، فاستهداه صاحب الدار المزارع الكبير براجار أبياتاً تذكيراً لزيارته . وامتدت الأيام وفعل الجوالدفيء والهواء العليل في أعصاب الشاب ، وغلبت العذوبة السارية على نفسه الثائرة ، فكان يقضى الساعات كالحالم متفتر الأوصال تحت ظلال النخيل ، وهو قرير العين طيب الخاطر في هذه الجزيرة الهادئة ، مشمولاً بعطف السيدة الحسنة الفاضلة . وحسبنا شاهداً على ذلك إيراد هذه الكلمة من رسالة له إلى آل براجار (ولولا أن حبي لباريس وحنيني إليها تجاوزا كل حد ، لأقمت بينكم أطول المقام ، ولفعلت كل ما يجعلني محبباً إليكم ، ولرايتموني أقل شذوذاً مما يظهر مني) . وكلمة الشاعر هذه في رسالته إلى آل براجار شاهدة بأجلى بيان على ما تستطيع

البيئة الجميلة المدركة الطيبة أن تفعله في مزاج هذا المحروم المعذب .
ولقد برّ الشاعر بوعده ، فلم تمض على مغادرته الجزيرة أيام حتى
أرسل بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٨٤١ من جزيرة بوربون وهو في طريق العودة
أبياتاً يحكي بها غانية جزيرة موريس مع رقعة إلى زوجها يقول في مستهلها .
(لما كان من المستحسن واللائق والمناسب أن شعراً يرفعه شاب
إلى سيدة متروجة ، لا بد من وروده على يد زوجها قبل بلوغه إليها ، فأنا
مرسل الشعر إليك لتطلعها عليه إذا رأيت ذلك) .

وهذه هي الأبيات :

« في البلاد المتضوعة بالعطر التي تداعبها الشمس الساطعة
« وتحت ظلة ظليلة من شجر وارس أرجواني
« ومن نخيل تفيض على الاجفان فتوراً
« عرفت غانية مستوطنة ذات فتنة لا عهد بها

* * *

« لونها شاحب حار . وهذه القاتمة السمراء
« ذات جريد مشرف السميت ، نبيل الالتفات
« مديدة القامة هيفاء ، كأنها طاردة قانصة
« لها ابتسامة هادئة ، وفي عينها ثقة .

* * *

« لو جئت يا غانية — إلى بلاد المجد الأثيل
« على ضفاف السين أو وادي اللوار النضير

« أيتها الحسناء الرائعة الطلعة التي تليق زينة لقصور الأمراء.

* * *

« إذا لحيتك في كنف حمائلها الوارفة
« ألف مقطوعة أنت أطلعت طلعتها في أفئدة الشعراء .
« وقد سبتهم عينك النجلاوان فباتوا أطوع لك من عبيدك
السود » .

ولم يتجاوز مقام بودلير في جزيرة موريس أسابيع ثلاثة ، بل هو على وجه التحقيق أقل من ذلك. فقد نزل إليها - كما قلنا - في أول يوم من شهر سبتمبر وكانت رحلته عنها في التاسع عشر . وإذا كان شاعرنا طوال أشهر السفر لم يفتأ شديد الحنين إلى باريس ، كارهاً للبعد عنها فإن حنينه بعد هذه الأسابيع الثلاثة كان قد بلغ مبلغاً لا يغالب . فهو موطن العزم على قطع هذه الرحلة الطويلة والعودة من حيث أتى .

على أن حواس الشاعر - على الرغم من الملل القاتل - كانت تعمل ، وذاكرته - من غير علمه - كانت تسجل . فثمة الخليج الممتد أمامه تتعالى الصواري فيه كالغابة الشجراء ، مزدحماً بأنواع السفن كباراً وصغاراً شتى الأشكال مختلفة الشيات ، وعليها المسافرون والملاحون والحمالون جميعاً في هرج ومرج من جميع الألوان والأجناس . وثمة مزارع قصب السكر منبسطة عند قدميه شاسعة . وهنا وهناك على المغايض أشجار عتمة الصمغ ، متدلية الشعور ، ذات خضرة مائية . ومن فوق هذا كله زرقة السماء الشديدة النبلجية . وفي الحين بعد الحين تسمع هتافات لبعض الطيور شاذة النغمة عجيبة التصدية . وتتوارد على النظر سحنات الهنود المجلوبين للعمل ، يقطعون الزروع ويحملون الحصاد ، وأشباح الجوارى السود بمشوقات القدود ، والفوط الملونة مشدودة حول أردافهن المرححة .

ولكن الفتى المهجوم ما كان ليعبر هذا المنظر اهتمامه . إنه يفكر في باريس مصمماً على العودة . وأعلن إلى القبطان تصميمه ، وأحسن القبطان هذه المرة أن المراجعة لا تجدى . فاتفقا على أن يصبحه حتى جزيرة بوربون ، وهناك يدبر له السفر على إحدى السفن العائدة . فلما رست المركب في جزيرة بوربون ، كان الملل قد بلغ ببودلير غاية مداه وانتهى إلى أقصاه ، فكره أن ينزل إلى الجزيرة ، وبقي من الحرد عشرين يوماً في المركب ، حابساً نفسه متذكراً لما حوله ، وفي أثنائها كان نظمه للقصيد التي أرسلها إلى الحسناء الفرنسية نزيلة جزيرة موريس . وقد يش القبطان (ساور) من استرضائه وإقناعه بالمضي في الرحلة على سفينته . وفي السابع عشر أو الثامن عشر من أكتوبر أقلت (بحار الجنوب) شاخصه إلى البنغال — دون بودلير . لقد وكله القبطان ساور إلى عناية قبطان السفينة (السيد Alcide) القافلة إلى فرنسا .

وهكذا كانت رحلة بودلير إلى الشرق مقتضية . ومع ذلك فإن ما افاده منها لا حد له . لقد عاد أوفر خيالاً وأغنى إحساساً بما اجتثته عيناه من المناظر ، وما حلمت به نفسه من الأحلام . إن الشهور الطوال التي قضها على ظهر المركب لا يجد ما يفعله إلا النظر في اللجة الطامية المترامية في عرض البحار ، قد زادت في تعميق ميله إلى سباحات الفكر . وإن ينس فلن ينسى أيامه في تلك الجزيرة النائية في المحيط الهندي ، في أحضان حياة عذبة نشوى ، حيث الألوان الزاهية تخطف الأبصار ، وحيث النباتات العجيبة في هبوة الحر المتصاعدة تنحوى وتتلوى كأنما هي من عالم الأشباح لا من عالم الحقيقة ، ثم ساعات القيلولة ، وهو متفر الجسد في ظلال الأكواخ ، تحت سماء الظهيرة الصاخدة المحرقة . وبعدها ساعة المساء المشبعة المثقلة بشذا العطور الفاغمة وهو في حال من خدر الحس وسكرة النفس بين الحلم واليقظة . لقد أشربت نفسه وحسه وذنه وخياله

بكل هذا . وتزودت منه بذخيرة لا تنفد ، يقيس منها في مستأنف حياته
الصور والتشابه والمقالات والرؤى لأجمل كتاباته وأروع أشعاره .

عاد شاعرنا من الشرق فلم يلبث أن ظهر في شعره هذا الشوق الغامض
إلى جواء غنية حارة ، وآفاق بعيدة مجهولة ، وبهاء باهر ، وجمال نادر ،
مما يعز وجوده في هذا الوجود . ولقد بقيت لشعره هذه التزعة الحسية الصوفية
التي تعد أخص خصائصه .

فهذه الرحلة للشرق كانت نقطة التحول في حياة بودلير الأدبية . فقد
بدأ بداية ناشئ غير مستوئق من نفسه ، يصبو إلى أن يتنظم في الحياة
الفنية تساوره صور من الشعر مبهمة . أما اليوم ، فقد انقلب صاحب
قريحة أصيلة ، وخيال مشبوب مطبوع : ووحى خالص له ، ورسالة
مخصصة به .



الشاعر في جولاته الليلية

رسم خيالي بريشته



زهرة الشر . . جان ديفال

'بريشة الشاعر

الولد المضيع

كان نزول بودلير إلى أرض الوطن في فبراير سنة ١٨٤٢ ، بعد تسعة شهور من الغيبة ، وبعد أيام كان في باريس ، ولم يكن أحد يتوقع قدومه يمثل هذه السرعة ، ولم تمالك الأم أن غلبها الفرح حين رأت ولدها المضيع يعود إليها ، أما الجنرال أوبيك ، الذي كان على علم بمسلك الفتى في الرحلة من رسالة تلقاها من القبطان ، فقد هز كتفيه كمن نفّس عنه كل أمل في استصلاح الفتى .

وكان شارل في دخيلة نفسه يستشعر الخوف من زوج أمه ، وهو يستر هذا الخوف حتى عن نفسه ، بالتظاهر بقلة المبالاة والمبالغة في الاستخفاف ، وكان الفتى من العصبية بحيث يسىء إلى من يريد مرضاتهم ، وهو أسوأ تصرفاً إذا شعر بأنه غير موضع للرضى ، ثم في طبعه فضلاً على ذلك شيء من الانتكاس يدفعه خاصة إلى إتيان العمل الذي لا يشك أن فيه استفزازاً لمن يكبرونه وتغييراً لهم عليه ، ولقد يأسف على هذا التصرف يصدر منه ، ولكنه أبدأ تصرفه الذي لا حيلة له فيه ، ولا معدى له عنه . عاد بودلير إذن من الرحلة واستأنف الحياة بباريس فلم يأنس أحد أدنى تحسن في سيرته ومتوجهه ، فهو كسابق العهد به مقارن لعشراء السوء ، لا يأخذ الدنيا مأخذ الجد ، ولا يتهيأ لعمل منتظم ، وكل ما جد في الأمر أنه اليوم أكبر عمراً ، ولكنه ليس أرجح عقلاً .

وكان الجنرال أوبيك لا يخلو من تصعب الخلق ، وتعتقد الجانب في تلك الأيام ، إذ تحرك عليه الألم من جراحة قديمة ، فهو ضيق الصدر لا يطيق الصبر على رؤية هذا الفتى في العشرين من عمره لا يعمل شيئاً طوال يومه ، إلا أن يدور في حجرات البيت يدخن أنواعاً من قصبات التبغ ، ولا يفتأ

يتعرض بالقول المخالف لما يرى الجنرال أوبيك أنه لا يعرفه ، وهو الحياة والأخلاق ، فإذا هو خرج ، فلنما يخرج ليفنى وقته في المقاهي والمشارب ، مع عصبة من السفهاء المتأليف أمثاله ، وكان أوبيك لا يعنى الفتى من موجع النكير وغليظ القول على قبح سيرته ، والفتى يجيبه متحدياً متوقفاً غير مبق على مودته ، وكانت مدام أوبيك تشقى أشد الشقاء بدوام الخلاف وامتناع الوفاق بين أعز من في الوجود عليها : ابنها وزوجها ، وهى لا ترجو من دنياها شيئاً إلا أن تراهما إلى جانبيها يعيشان معاً في سلام ووثام .

ولكى تأمن مدام أوبيك ألا يقع صدام بينهما في غيبتها ، عمدت إلى اصطحاب الفتى معها عند خروجها للزيارة . والفتى كدأبه لا يفوته شيء مما يحول في خاطر أمه . فبينما هو معها في زيارة لإحدى الأسر الكريمة من معارف أوبيك ، أفضى بالقوم الحديث إلى ذكر المرأة . فقال شيخ جليل كبير المقام من الحاضرين على سبيل التحية لصاحبة الدار (إن المرأة أبعد وأكمل خلق الله) فإذا الفتى في كراهته للألفاظ الجوفاء وزدراثة لمجاملات الشناء — يبادره : (أوحقا تظن ذلك ، إني أخالفك . النساء في رأيي كالحيوانات الدواجن لا بد من حبسها وإصباح الباب دونها . ومن الواجب القيام على تغذيتها والعناية بأمرها . ومن الواجب في الحين بعد الحين ضربها وتأديبها) . ونترك للقارئ تصور الامتناع الذي أحدثه هذا القول بين العلية المجتمعين في حجرة الاستقبال الفاخرة . وأما والددة بودلير — وهى الشديدة الحرص على مواضع المجتمع — فلم تدر أين تلور بوجهها من ارتباكها وخجلها . ومنذ ذلك اليوم لم يعرض على بودلير أن يغشى ذلك البيت .

ولم تمض أسابيع على مقام الفتى مع أمه وزوجها في باريس حتى أخذ يثقل عليه جو الاستنكار وعدم الرضى الذى يعيش فيه — وإن يكن

هو موجدته ، والمهني لأسبابه . فكبر عليه الأمر ، وعز الصبر .
 وفي أبريل سنة ١٨٤٢ بعد شهرين من عودته ، بلغ بودلير سن الرشد .
 وقد حرص أوبيك - وهو دائماً المدقق المتشدد - على تقديم الحساب لابن
 زوجته حالما انتهى أمد قيامه عليه مقام الوصى . وكان الميراث مشتركاً بين
 بودلير وأخيه لأبيه . وقد أراد بودلير - كما هو المنتظر - نصيبه نقداً .
 فبيعت حصته من الأرض دون أخيه ، فكان له منها ٧٥٠٠٠ فرنك ،
 وللنقد في ذلك الحين أضعاف قيمته في أيامنا . فلا يغالى من يسلكه في
 عداد أبناء البيوتات اليسورين . وأما في وسط الأدباء البوهيميين من الحى
 اللاتينى فكان معدوداً من ذوى الثروة العريضة . وقد جاء على لسان صديق
 منهم وهو بانفيل في معرض رثائه بودلير عند وفاته قوله : « لقد كان عظيم
 الثراء فمات فقيراً » .

وما كادت تم لبودلير تسوية ميراثه ، حتى فارق دار الأسرة بعيداً
 عن الاستهجان والإتكاف ، بُعيداً عن هذا الرجل الذى يدخل في روعه
 دائماً أنه مخلوق عاجز مضيع . ولقد اتخذ قراره ودبر تدبيره دون أن يطلع
 أحداً . فإذا كان في عصر بعض الأيام تسلك من البيت تاركاً لأمه رقعة
 فوق منضدة الردهة أو في موضع زينتها . ولعله آثر هذا الروغان انقاء
 لموقف صاخب مع زوج أمه ، أو تفادياً من مشهد مؤثر مع أمه . وأما
 الرقعة فهذا نصها :

« إننى ذاهب عنكم ، ولن ترونى إلا في حال أحسن من حالى معنويا
 وماديا . ولدهابى أسباب عدة : أولها : ما ران على من انحطاط في القوى
 ونحمود شنيع في النشاط ، فأنا محتاج إلى الكثير من الوحدة للتسرية
 والاستجمام . ثانياً : أنه يستحيل على أن أكون ما يريدنى زوجك على أن
 أكونه ، ومن ثمة فأنا في حكم من يسرقه إن أقمت عنده أكثر مما
 أقمت . وأخيراً إنى أرى من غير اللائق أن تكون معاملته لى على النحو

الذى أراه يزعمه . وأكبر الظن أنى مقبل على حياة صعبة ، ولكنى سأكون أسعد حالاً وأهنأ بالاً .

وسأكتب إليك اليوم أو غداً بما أنا محتاج إليه من متاعى ، وإلى أى مكان يكون إرساله . وهذا العزم منى راسخ قاطع ، وقد أمضيته بعد أعمال الروية وإطالة التفكير . فالشكوى منه لا موجب لها ، وإنما فهمه هو الواجب .

واستطاب بودلير الحياة بعد هجرته الدار فى يونيه سنة ١٨٤٢ . إن الحياة للحافلة بما يمكن أن يفعله ، وبما يمكن أن يكشفه ، وما يمكن أن يلبسه من خير ومن شر . لقد تخلص من الإحساس بالضيق ووظأة القهر فى جوار زوج أمه ، فهو لا يرى شيئاً مستعصياً عليه ، أمامه الحياة الأدبية ناشطة جائشة . وهل كان أوفر نشاطاً وأكثر جيشاناً من الحياة الأدبية فى منتصف القرن التاسع عشر . وكان الاشتهار حيناً ميسوراً لمن له حظ من القريحة . ولقد اشتهر من دونه سنا ، ومن هم أقل منه موهبة . وكذلك كانت أمامه حياة اللذة والاستمتاع فى باريس . وباريس وقتئذ فتنة لا تعدلها فتنة . فقد بدأت تأخذ مظهرها الذى صارت به فيما بعد حاضرة الحواضر وعروس المدن الأوروبية . عمّ التجميل شوارعها وميادينها ومبانيها وكنايسها ومقاهيها ومشاربها ، وقام بها قوس النصر ، واستكثر من مصابيح الإضاءة المستحدثة بالغاز حتى زهت لياليها الساحرة ، وحفلت بالمقيمين والزائرين من كل قطر ، واستحقت من ذلك الحين لقب « مدينة النور » .

ألقي شارل بودلير نفسه فى وسط هذه الحياة الحافلة المتفرزة . وكان صادق النية على العمل مع ما فيه من انجذاب — كأهل العصر — إلى طلب اللذات . وكان همه الأول أن يجد المكان الموافق لإقامته . ولقد اختاره بعيداً عن الحى اللاتينى . فهو — وإن كان يوافق أصدقاءه

بالحي اللاتيني في شهوة الحرية واحتقار المواضع الاجتماعية - يخالفهم في حرصه على النظافة والأناقة ، وإيثاره للمظهر والأبهة ، وتكلفه للتظرف والتزامه مراسمه. وقد استقر به المقام أخيراً في فندق لوزون Hôtel Lauzun (ويسمى أيضاً بيمودان Pimodan) حيث كان يقيم بعض السادة الغطارييف . فاتخذ به جناحاً وإن يكن دونهم إلا أنه مؤلف من بضعة حجرات قليلة السعة عالية السقف مطلة على السين ، اشترى لها أفخر الأثاث من تاجر من تجار العاديات غالتى في ثمنها وأثقله بالديون حتى مات ولم يفرغ من وفاتها جميعاً . ولا غرابة في الأمر إذا علمنا أنه كان كلما كره بعض الصور أو الأثاث ردها للتاجر واستبدل بها غيرها ، مع زيادة الدين . وكانت الجدران مغطاة بالورق المخطط سيوراً عريضة سوداً وحمراً ، ولوحاتها منقوشة بالذهب ، وقد علق بها صور شتى للرسام دلاكروا (Delacroix) مطبوعة على الحجر نقلا عن الأصل إلا واحدة أصلية تمثل الحزن . وكذلك صورة زيتية للرسام ديروى (Deroy) تمثل (نساء الجزائر) . وكانت على النوافذ والأبواب أستار من الدمقس القديم الصفيق . والأرض مفروشة بالطنافس الناعمة الوثيرة لا يسمع عليها وقع قدم . وكان الخادم يدخل بين الفترة والفترة في سكون للقيام بالخدمة ، وكان بودلير نفسه يخافت الخطو حين يمشى بين ضيوفه يرشهم بالعطور الشرقية .

وهذا بعينه لون الحياة الذى شاع في أواخر القرن التاسع عشر وأصبح هو النسق المحتذى عند المتأثرين بدعوة الجمال الفنى لذلك العهد .

ولقد صرف بودلير مثل هذه العناية إلى برته وهندامه ، فكان يلبس أحياناً ستره من الخممل الأسود مشدودة إلى وسطه بحزام مذهب ، فيكون له بذلك مع شعره القاتم ، ولحيته الخفيفة المخروطة ، منظر أشبه

بتصاویر الرسام تیتیان . وأحياناً كان يلبس سرة طويلة مستدقة الذيل وسروالا ضيقاً من الجوخ الخالك اللون ، ثم الجورب من حرير أبيض . وأما القميص فن الكتان الناصع دقيق النسيج ، وأردانه مثناة عريضة ، منفرج الجيب عند العنق تزينه ربطة حمراء قرمزية . وقد يرى كذلك مرتدياً حلة زاهية الزرقة مذهبة الأزرار . وكانت معظم ثيابه التي يرتديها من رسمه وتفكيره ، وكان يعنت الحائك من فرط التدقيق في إخراجها مطابقة لفكرته . وبالجملة كان من الشبيهة المتحذقة المندام المتخطفة ، وله في ذلك مذاهب وأقوال مأثورة .

لقد قلت زيارات بودلير لمقاهي الحى اللاتينى - كما أسلفنا ، وأخذ في أكثر أوقاته يغشى في العدة الأخرى المقاهي الأنيقة التي كانت ملتقى الكتاب الإبداعيين ، من أهل الظرف والأناقة ، أمثال الفرد دى موسيه (Alfred de Musset) وروجيه دى بوفوار (Roger de Bouvoir) وغيرهما ممن كانوا يشغلون الناس بشكل هندامهم ، وألوان زينهم ، وتنسيق أثاثهم ، وطرائف غرامهم ، قدر ما يشغلونهم بأدبهم في بعض الأحوال .

وكان بودلير إذ ذاك محدثاً من أبرع المحدثين . فلا يكاد يجلس إليه أحد إلا وقع تحت تأثير سحره . ولقد وصف « تيودور دى بانفيل » - وهو وقتئذ أسبق قدماً في عالم التأليف وله مكانة وشهرة - أول اجتماع له ببودلير وصفاً يدل على مبلغ انجذابه وافتتانه . « خيم الليل صافي الأديم ساجياً ساحراً ، فخرجنا من حداثك لوكسمبرج نمشى في شوارع البوليفار . وفي تلك الليلة التي ما برحت أعز ذكريات الصبا عندي ، غمرني بودلير وحدي بما لاحصر له من كنوز ذهنه وذخائره ، أشبه ما يكون بتلك الأميرة التي تحكى عنها القصة أنها كانت تساقط اللآلى والدُر من فيها . ولقد مضت بنا الليلة كلها سريعة خاطفة ونحن نتكلم » ولم يكن بودلير بحاجة إلى الخمر ليرسل الحديث حيا مشبوباً . فقد كانت تأخذه

نشوة الحديث إذا تحدث ، وما أعوزه قط موضوع للكلام ، وكان يتكلم في الجمال والسياسة والمعقولات فيستبهرى الأسماع على حد سواء فيها جميعاً . ولا غرو أن يكون ذلك كذلك عند من يصف الحديث بأنه « المتعة العظيمة الوحيدة لكل ذى روحية وأريحية » .

ولكن بودلير لم يكن يقف عند سحره الناس ، بل كان لا بد له من إثارة دهشتهم ومفاجأتهم . فليس أحب إليه من ارتسام الدهش على الوجوه . فإذا جلس في مقهى من المقاهى يرشف قهوته بعد الغداء ، قضى الساعات الطوال يتحدث ، وقد أقبل عليه الناس من جميع الموائد . ومتى استحوذ على أسماعهم ، استغرق في مقعده ووضع ساقاً على ساق ، وجعل يتأمل ذوائب الدخان تتصاعد في الهواء من سيجاره الكبير ، وأنشأ يرصف : « أنا — بحكم أنى نجل قسيس كاثوليكي — عليم بما أروى لكم . . . »

« حدث ذلك في الوقت الذى قتلت فيه المرحوم والدى الشيخ » .

ومن هذا القبيل الكثير مما ورد عن الشاعر في مذكرات بعض المعاصرين من الأمور الغريبة المنكرة .

على أن من يقرأ عن أوساط الفن والأدب خاصة في ذلك العصر ، يقرأ الكثير عن ضروب الإباحة والاستهتار ، وعن نوادى تدخين الأفيون والقلب المندى ، وعن استطرافهم للردائل وتكلفهم غرائب الأطوار . وقد أثبتنا للشاعر ما أثبتناه ، وأغفلنا ما أغفلناه ، ضاربين صفحاً عن ذكره ، ولم نجد ضرورة لتقصيها ما دام شاعرنا لم يختص بها .

زهرة الشر

في عام ١٨٤٣ في بعض الليالي عقب العشاء بأحد المقاهي الباريسية ، غادر شارل بودلير أصدقاءه الأدباء معجلاً . ولعله شاء أن يأوى إلى داره ويعكف على العمل . لكنه درج في الطريق مسترسلاً ذاهباً على وجهه لا يبغى مقصداً بعينه . فتجاوز ساحة الأديون ماضياً طوع قديمه حتى قبيل نصب البانتيون ، فاستوقفه إعلان تافه ، لمسرح في الحى صغير ، عن رواية ذات فصل واحد وأدوار غنائية . ولم يكن عنده شك في سخافتها . ولكن هذا الرقيق الذوق ، المرهف الحس ، كان أحياناً لا يستكره هذه السخافات لما فيها من مباينة لتفكيره البعيد وتأملاته العميقة فدخل الملهى ، واستمع إلى بعض مقطوعات العزف والغناء . وقوبلت هذه بالتصفيق الفاتر المسترخى كأنه التثاؤب . وسكت الموسيقى من الفرقة العازفة الهزيلة . وبدأ التمثيل على طريقته المعادة المألوفة ، في حركة من المرح متكلفة النشاط سخيفة . ثم ظهرت - فيمن ظهر على المسرح - خادمة لفظت ثلاث كلمات لا أكثر . فاشرب لها بودلير كالمتغرب . إنها جارية مولدة ، ولا تشبه من معها من الممثلات ، طويلة القامة ، لها خصر نحيل مفرط الدقة ، وأرداف جزلة مستعرضة ، ونهد قاعد على صدر نحيف . وبالجملة كانت تخالفهن بشيء من المبالغة في تقاطيعها وبضرب من التموج في مشيتها . وما لبث بودلير أن عرته هزة . وعمد إلى البرنامج الذى بيده يتعرف على اسمها : (الأنسة جان ديفال) . ولم يكن في هذا غنية ولا شفاء غلة . فقد استطلع خبرها ، فعلم أنها حديثة العهد مبتدئة ، وأنها لا تظهر بعدها في رواية الليلة ، وأن دورها في التمثيل لا يتجاوز قط عبارة قصيرة مما تقوله الخادمة ، تعلن قدوم زائر

أو تؤذن بأن المائدة جاهزة . وليس يخفى أن الأمر في هذه المسارح المأجنة يسرّ والوصول مباح . ولكن السيد بودلير مع هذا لم يقصد من فوره إلى ما وراء الستائر لمقابلتها كما هو المؤلف مع أمثالها . بل ابتاع باقة من الزهر أرسلها إليها ، مع بطاقة يعرب فيها عن أمله في أن تسمح باستقباله في اليوم التالي .

وانصرف بودلير مبيلب الخاطر . وبلغ إلى داره في شارع فانو Vaneau مهتاج الشعور مشبوب الخيال . لقد انطلقت في نفسه نزعة عارمة هرجاء . هذه المرأة بقامتها المخطوطة المتنن أقامت قيامته . إنها الصورة العالقة بذهنه للنساء الوطنيات في جزيرة موريس في المحيط الهندي ، وقد ظلت صورة أجسامهن ومشيتهن طويلاً كالسواس الملائم مسلطاً على نفسه معذباً لحسه . لقد ذهل بودلير عما كان يفكر فيه من عظة ماضيه وانصرف عما كان يدبره لمستقبله . نسي كل شيء إلا هذه المرأة .

وليس من شك في أن جان ديفال دهشت لما تكلفه هذا السيد من أدب في تصرفه معها ، وللباقة من الزهر والبطاقة الناطقة بالاحترام . ذلك شأن لا عهد لها به . وزاد دهشتها حين حضر للمسرح . لأنه أخذ يتحجب إليها ويتصباها بالإشارة اللطيفة والكلام الغزل وهو — إلى هذا — فتى وسيم ، غض الإهاب ، سبط القوام ، فاحم الشعر ناصع الجبين ، له نظرة عميقة نافذة طويلة الإمعان ، وفم أغر الثنايا ، وشفاه منفعة الحنايا فيها شهوة وسخرية ، وأنف أذلف خياشيمه رقيقة خفاقة ، وعلى ذقنه نونة غائرة ، تهفو على وجناته حمرة خفيفة إلى جانب زرقة عذاره الحليق المذرور . كما أنه مترف الملبس أنيق المندام ، شديد العناية بيديه تطرية وبأظافره تقليماً . وبالجملة فتى من أهل النعمة وأبناء البيوتات .

بدأت هذه المراسم من الفتى معها شاذة غريبة ، ووقعت لغته في

سمعتها غامضة معقدة . ففيم هذه الغزليات ؟ ولئن هذه الاحترامات ؟ أتراها يستهزئ بها ! أهو مخبول ! ونظرت إليه نظرة فاحصة ، نظرة بنت الحوى تفحصن العميل الجديد . واقتضى خبث هذه المخلوقة ألا تبيحه في ليلته من نفسها ما تبيحه للآخرين . وتصنعت الفتور من جهته . والعجيب أن هذا المرتاد لأحط بؤر الفساد ، الخبير بأساليب المماكسة والمساومة في أثمان المملذات ، ركبته الغفلة في هذه المرة ولم يفتن إلى وجه الحيلة . وأخيراً في ذات ليلة اصططحبته جان إلى غرفتها في شارع القديس جورج .

ولكن ، من ذا تكون جان ديفال هذه ، في أى أرض نشأت ، ومن ناسها ، وماذا جاء بها ؟ لا أحد يدرى . وإنما يزعم الزاعمون أنها ولدت في سان دومنج (بجزيرة هايتى من جزائر الأنتيل الكبرى في المحيط الأطلسى بين الأمريكين) . أما كيف قدمت إلى باريس ، وما أحاط بقدموها من ملاسبات فلا يدرى أحد من أمرها شيئاً .

ولقد اختلفوا حتى في وصف شخصها . فيقول بانفيل على عادته من التجميل « إنها جارية مولدة ، مديدة الشطاط ، غريرة رائعة ، تعلوها جمة شعر مفلفل . وهى تختال كالمملكة ، بل إن مشيتها تجمع بحسبها النافر سياء الألوهية والحيوانية معاً » .

ويذكر براروند (Prarond) في اعتدال « أن جان لم تكن بالمفرطة السمرة ، ولا المفرطة الحسن ، شعرها أسود جعد ، ويكاد صدرها يكون أمسح أجب . مديدة القامة . لا تحسن المشية » ويقرر جيل بويسون (Jules Buisson) كالمستنكر « أن لها وجنتين ناتنتين ، ولوناً أصفر كائياً ، وشفتين حمراوين ، وشعرأ وحفاً متموجاً في حد الجعودة » .

ولكن مالنا وطؤلاء الشهود ، وعندنا رسوم لها بريشة بودلير ، وبودلير يرسم بيد متمكنة ثابتة . لقد ورث الملكة عن أبيه الذى كان بعد اعتزاله

الوظيفة يسمى نفسه في شجاعة رساما . ولئن لم تكن صورته التي رسمها
لحان ديفال بأبدع الرسوم إلا أنها تشعرنا كل الشعور بالقوة البهيمية
في هذه المرأة ، لاسما الصورة التي كتب في أدناها كلمة قالها القديس
بطرس في وصف الشيطان (يطلب إنساناً يقرسه) ، وهي في هذه الصورة
ذات عيتين سوداوين نجلاوين « أشبه في سعتهما بقصاع الحساء » على
حد تعبيره ، وشعرها غيب حالك جثل كاللبد ، وأنفها أذلف ، وشفتاها
غليظتان باللحم ، وتدياها ناهدان متباعدان بارزان على صدر أعجف .
أما قدها فأهيف لدن المعاطف يتعارض وروادفها اللقاء المكتنزة ، وبالجملة
فهو جسم هلوك فاجرة لا تشيع لها مهمة ، جسم عرف كل شيء ، واستباح
كل شيء ، تعلوه طلعة بليدة مأكرة . أما العقل فعدم ، أما القلب فعدم ،
وهذه هي المعشوقة التي افتتن بها الشاعر .

هنا يعاود القارئ السؤال ، ومن حقه ألا يقضى عجبه ، وأن يديم
تساؤله : « وماذا أوقعه في عشقها ، إذا كان هذا وصفها ؟ »
فنعيد هنا أيضاً ما سبق أن ذكرناه من عودة الشاعر الفتي منذ عام
أو يزيد قليلا من الرحلة التي أجبره عليها أهلوهم سدى ، لاستصلاحه
وصرفه عن الشعر ومزاولة الأدب ، وفي هذه الرحلة الإجبارية على مركب
من المراكب التجارية ، دار الشاعر حول القارة الإفريقية وجاب بحر
الهند ومر بمدغشقر وجزيرتي موريس وبوربون ، ومن هذا السفر الطويل
الشقة احتقب الشاعر كما قدمنا وهجاً حاراً ببنى زاده وعتاده طوال حياته ،
ونحيلا باهراً لبث نجى بقلته وسمير أحلامه جى ممانه ، فقد راعته تلك
البلاد النائية بشمسها الساطعة ، ولباليها الصافية الساحرة تلالاً فيها
النجوم قريبة دانية ، وبالنيابات الباسقة الهائلة الفاعمة الشدا ، وبيوت
الأصنام العجيبة وتهاويل الآلهة المسوخة المعبودة ، ولبحر المحيط الهندي
الزرقاء الرجراجة ، المطردة المزج والتراتيل ، وهاته الشخصوس السمر

المترائية بأجسام مشوقة نصف عارية ، مؤتزة برياط ملونة زاهية ،
وسائر هذه الطبيعة التي لم يعدها بكل حرارتها وقوتها وغنى ألوانها .
فلما أن حم القضاء وقعت نظرتة على جان ديفال هذه ، تحرك
حنينه إلى مجالى الطبيعة فى تلك الآفاق ، وهفا حسه إلى ما فاته من حياة
الغريزة بين أحضانها ، فهيامه ليس هياماً بها وحدها ، بل بكل تلك
الآفاق من طلاقة غريزة وفتنة طبيعة ، وهى ليست امرأة فحسب ، إنها
(آسيا المتفجرة ، وإفريقية المحرقة) . وحسب القارئ أن يسمع إلى قصائده
فيها ، ليتمثلها كما هى فى خيال الشاعر ، فهى عنده الشمس العظيمة
الساطعة على البحر اللجى ، وهى سعف النخيل المتأودة فى نفحات النسيم
الساخن الوانى ، وهى شدا المسك الأذفر يتضوع فى جنح الليل . . .
وبعارة موجزة هى جميع ما أحسه واجتلاه واستنشاه فى أيامه ولياليه فى
تلك الجزائر الساحرة :

« حين أكون فى ليلة دفتة من ليالى الحريف إلى قربك
« أستنشق مغمض العينين شدا صدرك الحار
« تتراءى لى شواطئ سعينة
« تسطع عليها شمس صالبة متوهجة شديدة .

* * *

« هى جزيرة متفجرة كسلى
« حبتها الطبيعة أشجاراً فريدة وثماراً شهية
« ورجالاً أجسامهم مشوقة قوية
« ونساء يحلن اللب بنظراتهن العنجة الناطقة

* * *

« ويحملنى شذاك إلى آفاق ساحرة
 « فكأنى بمرقاً يحفل بالقلوع والصورى
 « وهى لما تزل منهوكة من عراك الالهج
 « وهذا أريج شجر التمر هندی
 « متضوعاً فى الفضاء يفغم حسى
 « ويمتزج بأغانى الملاحين فى نفسى » ..

فكيف يقوى الشاعر على ترك هذه المرأة ، وهى هذا العالم جميعه عنده ؟ إن مظهر التسليم والخضوع المعهود فى أمثالها من الجوارى الخلاسيات ، وعادة التضمخ بالطيب المركبة فى غريزة النساء البدائيات : كان فيها شيع حسه ومنطلي خياله . وإلى هذا وذاك ، جسدها المشوق المبتل ، الجزل التقاطيع ، وما يعرضه هذا الجسد تحت نظر الفنان من الخطوط والاستدارات فى سكونه ، ومن شتى التواليف المتغيرة المتقلبة فى تثنيه وحركته ، يستطيره العجب إذا سكنت فى ضجعة من ضجعاتها فردد هتافه :

« إلى مبغض للحركة التى تنقل الخطوط من مواضعها » .

ويستخفه الطرب إذا هى خطرت أمامه فيغنى أغنيته المرقصة :

« من رآك فى غير تكلف تخطينى

« حلوة الاسترسال على السجية

« يحسبك أفعى ترقصين

« على طرف العصبية » .

فهو مجنون بها ، متم فى حبها على الحالين : حالها وهى مقابلة مدبرة

فى الغرفة ، عارية القدمين . ولبد شعرها الكثيف مرسل أشعث ، تخطر
خطرتها ، رافلة فى غلائلها النفيسة التى تفرغها على جسدها مباشرة دون
عناية بها وتكلف لهندامها ، وحالها وهى مضطجعة على الأريكة صامتة
جامدة ، شاخصة العينين فى الفضاء بنظرة قاسية براقة مظلمة ، حيث
تأخذ الشاعر بغموضها وفجورها ، وتروعه بجمودها وضراوتها :

« فى غلائلها الهفهافة المتلاثلة
« تمشى مشيتها فتحسبها راقصة
« كتلكم الأفاعى الطويلة المائسة
« يرقصها على أطراف العصى حواة المعابد المقدسة

* * *

« وتارة هى كالرمال الموحشة ، وقبة السماء على الصحراء
« كلاهما لا يحس ما يلقى ابن آدم من برحاء
« وكغوارب الموج المتدفقة المطردة فى صفحة الدماء
« تضطجع مسبكرة متمددة فى غير اكتراث

* * *

« فى عينها البراقيتين جاذبية كأنهما من معادن سحرية
« وفى ذاتها يأتلف الملاك الطاهر الكريم
« وأبو الهول ، الحيوان الطائر ، ذو اللغز القديم
« وكل شىء فيها ذهب وفولاذ وبريق وجوهر

* * *

« ويشرق مدى العمر فى تلك الذات الغريبة الرمزية

« إشراق الكوكب المهدور الضياء في القلاة اليهماء
 « ذلكم الجلال الخامد في المرأة العقيم » .

فالشاعر كما رأينا واقع في أسرها ، مترام عند قدميها ، يعبدها بجملتها ،
 ويعبدها في دقائقها وتفصيلها . ولو كان يتسع لنا المجال هنا لأوردنا
 قصيدته (في شعرها) : تلك البجمة الوافرة ، والأجمة العاطرة ، وبحر
 الآبنوس اللججى . ورواق الليل الدجوجى — ولأثبتنا نظمه (في حلبيها)
 تلك الحلج المصلصلة الموسوسة بصوت ساخر ظافر ، اللامعة المتألقة بالمعدن
 والجواهر . جامعة في السمع والعين بين الرنين والبريق — ولسقنا أوصافه
 لعينيها ، وحاجبيها ، وشفتيها ، وكل جزء من تقاطيع جسمها ، وانعكاسات
 الألوان عليها في كل ساعة من ساعات النهار ، من سدفة السحر إلى ورس
 الأصيل ، ومن ضوء القمر الناعم إلى نار المدفأة — فضلا عن مشيتها ،
 وكل حركة من حركاتها ، بل كل لفطة باطنة من لفطات حسنها الغادر
 ونفسيها المظلمة . ولقد يتكرر ما يصفه منها ، ولكنه لا يتكرر إلا ليفيد
 مزيداً في الإيضاح وإحاطة بنواحي الموضوع . وحسبنا على سبيل الإيضاح
 أن نورد بعض إشارات — في تشبيه بها — إلى رائقها . فهي شتى لا تكاد
 تخلو منها قصيدة من قصائده فيها . ولقد تغزل بودلير في غير واحدة من
 النساء ، ولكنه لا يخص غير هذه السماء بنت البلاد الحارة بهذا التنويه
 برائحة عبيرها :

« على جسديك يحوم العبير »
 « كما يحوم حول المحمرة متصاعداً البخور » .

وفي قصيدة أخرى :

« يا لشعرها ! يا للعطر المشبع بالفتور !

« لأن هفت النفوس مع حللو التغمات

« فلان روى - يا حبيبتي - تسبح من عطرك فى نغمات »
وفى أخرى :

« شعرك الأنيث الكثيف المغمور
« ذو العبير الفاغم الحاد
« كبجر من العطر رجراج لا يستقر .
« أمواجه من زرقه وسواد » .

وفى غيرها :

« ومن فرعها إلى قدمها .
« يتضمن حول سمرة جسمها
« نفحة فاغمة وشذا ذو خطر » .

بل شاعت حاسة الشم الدقيقة التى رزقها الشاعر أن يخرج
من التعميم إلى التخصيص . فذهب فى وصفه رائحتها إلى حد تحليلها
وتحقيقها .

« أيها الزينة العجيبة .

« السمرء الإهاب مثل جناح الظلام
« الممزوجة العطر بمثل رائحة المسك والتبغ » .

وهذا من جهة الأوصاف الحسية . أما من ناحية الأوصاف المعنوية
فهو يردد معنيين يستهويانه فيها . هذا الكسل الذى يتعارض مع نشاط
الغرب المحموم وهو يسميه (الكسل الحبيب الحافل) ، ثم يبيأ الحزن
وهو عنده نظير الحسن . وإجماع الحزن والحسن عند بودلير معنى بليغ
الأثر فى نفسه ، ولا بأس بعد ذلك على صاحبهما من الجهل وبلادة العقل :

« ماذا يعنيني عقلك

» كوني جميلة وكوني حزينة » .

وغنى عن البيان أن جان ديفال لم يكن لها هذا الشأن إلا في عيني الشاعر — ولا نعى مطلق الشاعر ، بل بودلير بعينه . وذلك لجملة الأسباب التي أوردناها بما كان لها من التأثير على مزاجه وخياله . ولكنه كان مع هذا عسياً أن يتركها بعد حين إلى سواها ، بعد أن عرف ما عرف من انحطاطها وحبث نفسها ومقادر خيانتها له ووبالها عليه ، لولا أن هناك سبباً آخر هو سر من الأسرار الخفية المخزية يقيده إليها . ذلك السر هو أن انحطاط هذه المرأة عنه بما لا يقاس ، ثم أفانين تهتكها بلا حد جمعاً من ضعفه قوة ، وتغلبا على حياته ، فذاق في قربها متعة لم يدقها كاملة ناهكة إلا بين ذراعيها . فهو من أجل هذا يحبها هذا الحب كله . وهو من أجل هذا يحتقرها ويحتقر نفسه الاحتقار كله . وفي سبيل هذا انقلبت حياته طوال الأيام التي عاشها أعنف ساحة وأدناها لعراك الخير والشر ، والنور والظلام ، ولن يضل قارئ شعره بعد افتتاح ستره عن فهم عباراته المقتضية المتقطعة ، وإشارات الموجزة القاطعة ، وتشبيهاته المسوخة ، وتهاويله الغريبة ، ونوازعه المتضاربة ، وتمرغه المستهتر في حفاة الدرك الحيواني مع تهله الباطن للفجر الروحاني وسناه الشعشعاني .

في قرارة الهاوية

رغب بودلير في أن تهجر جان ديغال المسرح لتكون له خالصة . ففعلت غير خاسرة . لقد كانت في الطبقة الدنيا من بنات المسرح ! وما نزلت بهجرانها التمثيل عن مستقبل زاهر ولا عطلت ملكة مرجوة ، واستتبع هذا بطبيعة الحال التزامه بها وهو وقتئذ لا يزال موفور الرزق من حصته في مال أبيه . ولما كان بين شارع فانو الذي يقيم فيه الفتى ، وشارع سان جورج الذي تسكنه الفتاة ، شقة بعيدة مع صعوبة أسباب الانتقال لذلك العهد ، فقد دبر العاشق الأمر . فاتخذ جناحه الذي أشرنا إليه في الفندق الفاخر المعروف باسم لوزون أو بيمودان ، وأثت لها سكناً أنيقاً في الشارع المجاور ، شارع المرأة بلا رأس (وما أليق التسمية بها) . وقد أثر الشاعر المجاورة دون المساكنة ، حرصاً منه على حرشته وعلى أغراضه الأدبية العظمى وما تتطلبه من تفرغ للدرس . ووافق ذلك هوى جان أيضاً ، حتى لا تكون ليل نهار في عشرة هذا المفتون الذي لا يبني يسود الصفحات بالكتابة ، أو يفيض في كلام غير مفهوم . فحسبها أن يذهب إليها كل ليلة ويعود منهوكةً وهي مطمئنة إلى بقاءه لها ، عليمة بما يقيد إليها .

وزادت مطالب المرأة . وكان بودلير بطبعه ، تلافياً يتسرب المال من بين أنامله جزافاً ، فبدد في هذه المدة الوجيزة أكثر من نصف ميراثه . وخشى الساهرون عليه من العاقبة وهو سادر في غلوائه ، يتلف صحته وشرفه وشبابه . فرفعت أمه وزوجها الأمر إلى مجلس القضاء في سبتمبر سنة ١٨٤٤ إنقاذاً له من سوء المصير . فأقر المجلس حرمانه من التصرف في البقية الباقية من ماله وقضى له بريعه ، وذلك تحت إدارة أحد مسجلي

العقود من أصدقاء الأسرة . ولكن هيات يفي الربيع بنفقات الخلية ونفقاته . ولقد كان العراك ينشب من حين لآخر بينهما فاشتدت بعد ذلك حذته وتقاربت فتراتة . وانحدر في مهاوى الدين فطفق يستدين ولا يوفى . وإذا وفي القليل عاد إلى استدانة الكثير . ولم تسلم أمه من مطالبه ، فظل يلاحقها حتى آخر لحظة من حياته . وهي توجه إليه في الخفاء اليسير الذى تدخره ، مشفوعاً برسائل منها . يلطف حنانها ما تتضمنه من ملام . فيلقى القتي بالرسائل دبر أذنيه وينفق المال على المخطبة قعيدة شارع المرأة بلا رأس . وكان بودلير على الدوام شديد الشغف بالنبيذ الأبيض ، فزاد عليه معاقرة الخمور القوية وأنواع الكحول ، وإدمان القهوة والإكثار من للتدخين . وكأنما هذا لم يكفه فعمد إلى الأفيون يتعاطى خلاصته ومركباته ، ثم انتهى أيضاً إلى القنب الهندى — وكان بدعة العصر في باريس — فانتظم في نادى الحشاشين في فندق بيمودان يستمتع بهذا العقار العبق المخدر ، في صحبة من أصحاب الفن وغيرهم ، وهم جميعاً أصلب منه بنية وأمتن أسراً ، فإذا أوى آخر الليل إلى جان استأنف معها المعاقرة والانغماس في الموبقات كما يجدر بفتاة مثلها من الساقطات .

هذا كله وضيع موجع . وهو يحس ضيعته ووجيعته أشد الإحساس ، ولكنه معذب العاطفة ملتاث الأعصاب . فإذا نجا بنفسه وطلب الخلاص من الرذيلة شعر بالوحشة المطلقة والفراغ المرهق ، فيعود على رغبة عودة الملهوف ، رافعاً إلى (ربة الحسن السوداء) أحر التوسل والرجاء ، ويناجيها هائماً ناقماً مستعظماً :

« أهيم بك هيامى بقبة الليل
يا آتية الحزن ، يا حليفة الصمت !
« وزاد في حبيك أنك تجافيننى

« وأنت يا زينة ليالى - فى جفائك وسخرك
« تباعدى الشقة بين ذراعى
« وبين سمواتك الداجية الصافية

* * *

« ولكنى أبدأ عارج نحوك أسورك وأصعد إليك
« كما يصعد إلى الجثة فوج من الديدان
« أنا - أيتها الضارية التى لا تشفى لها غلة
« عاشق وامق أهوى حتى جفائك
« فأنت به أبدع فى ناظرى وأروع »

وكان الشاعر من هيامه بها يتوسم فيها إلى جنب رذائلها الفاضحة
الجمعة بعض الحصال الطيبة . فإذا به يفجع فى هذه البقية فقد تكلف
أن يعلمها ، فإذا هى مغلفة الذهن مؤثرة للجهل لا ينفع معها تثقيف
وهى تقرأ خطاباته وتفتش ثيابه وتفتح أدراجة لعلها تجد فيها ما تستخدمه
يوماً ضده . وهى لا ترعى له عهداً ولا تحفظ له جميلاً ، ولا تدعه لحظة
يفرغ إلى عمله . وتفعل كل ما فيه مضايقته ، حتى كان ينام مهراً ليقوم
بالليل وهى نائمة يعالج بعض الكتابة المطلوبة منه . ولا يقع نظرها فى
نظره حتى تقع بينهما شر المشاحنات . ولقد بلغ من إثارها له أن أهوى
عليها بشمعدان . وصدم رأسها بالمتضدة صدمة شجته . وهو يحمد الله
— كما قال فى خطابه لأمه — على خلو بيته من سلاح نارى وإلا فإنه
لا يدرى ما كان فاعله فى مثل هذه الثورات التى تنوقه هذه المرأة إليها فلا
يكاد يملك نفسه .

وفى ثورة كهذه نظم الشاعر العاشق المقطوعة الآتية وهى صرخة اليائس

العاني ، لا قوة له على الخلاص من هذا الإسار أو تموت أسرته . لا خلاص
إلا بقتلها ! فإنما للفكاك من ذراعها يفكر في الإجرام لا لشهوة الانتقام :

« أيتها الداخلة في قلبي الشاكي كطعنة سكين

« المقبلة في قوة كعصبة من الشياطين .

« المفتونة المتبرجة

« اتخذت سريرها وملكها في عقل الراغم المسكين

* * *

« أيتها الساقطة التي أنا موثق بها

« كالسجين بأغلاله ، ورهين المقامرة بالمقامرة

« والسكير بزجاجة الشراب ، والديدان بالجيفة

« لعينة ، لعينة أنت !

* * *

« ناشدت الخنجر القاطع أن يمكنني من حريقي

« وهتفت بالسم الزعاف أن يغيث نذالتي

« فأزرى في السم والخنجر وناجياني :

« لست أهلا لإعتاقلك من أسرك المنكر

* * *

« يا مأفون ! — لو عملنا على موتها

« وإنقاذك من سلطانها

« لأحييت بجمرة قبلاتك

« جثة معذبتك ومستنزفة دمك » .

وعاش شارل بودلير وجان ديفال في صراع صامت لدود . ولم يكن
اللهي بينهما صراع الرجل والمرأة فقط ، ولا صراع الأجناس فقط . بل
صراع الأنواع . ودارت المعركة بغير مهادنة ، معركة حياة أو موت ، معركة
غرام يشيع جسده وتجويع منه نفسه .

شخصية مركبة

مهما يكن من انغماس بودلير في الشر الذي انغمس فيه ، فإنه كان محتفظاً — طوال العمر وفي جميع الأحوال التي عركته — بقوة يرتفع بها على تلك الغمرات المهلكات . فهو يخوضها ويوغل فيها مرتظماً مشرفاً على العطب ، ولكنه لا يدعها تبتلعه .

إنه عاش ما عاش بين أحضان الرذيلة ، ولكنه ما نسي العمل قط . ولا عبرة بأنه لم يعرف في المدرسة بالاجتهاد ، ولا عبرة بأن أهله لم يعهدوا فيه إلا فتي فارغاً خالياً متبطلاً ، ولا عبرة بأن الأكثرين لم يروه إلا متطرفاً عابثاً لاهياً ، بل لا عبرة بأنه هو نفسه كان دائم الشكوى من عدم استطاعته حمل نفسه على العمل فالعمل ليس واحداً . ونعني العمل عند أهل الفنون أنفسهم . فن الكتاب من كانت لهم ساعات كل يوم للكتابة والتأليف . بل نجد بين الشعراء فكتور هيجو يقف إلى منتزعة في كل صباح وقفة النجار ، يحك بريشته المتخذة من قوادم الأوز صفحات بعد صفحات ، لا يتوقف إلا ليزدرد كعادته بيضة في الحين بعد الحين ، ثم يستأنف النظم ، مع ما هو مطلوب في الشعر من صناعة واستلها ، وذلك طول سني حياته وما كانت حياته بالقصيرة . هذا مثل للعمل ومثل رائع . ولكنه ليس المثل الوحيد . فهناك ما يشبه للناس أنه الكسل ، ولكنه الكسل الخصب ، أو — بعبارة أخرى — العمل السليبي وأقرب الأمثلة على ذلك بودلير . فإن بودلير مع اتهامه نفسه بالكسل ، كان من أدب الناس على العمل ، بل كان مطبوعاً عليه . فهو منذ الطفولة لم يسمح لنفسه أن تسريح ، بل كان دائب الدراسة لأمه ، يحال عواطفها ، ومواقفها من أبيه وابن أبيه وخادمة أبيه المتسلطة على تدبير المنزل ، ثم موافقها منه بعد وفاة الزوج الشيخ وبعد ذلك منذ اتصلت

بزوجها الجديد . وكذلك كان في سائر علاقته بالناس ، بل في أخص
لحظات لذاته وصرعات شهواته ، يقظ الفؤاد صاحي الوعي ، لا يكف
عن الدرس . فهو من تلقائه وفي غير كلفة ، يستقصى موضوعات حسه
ويسبر أغوار نفسه .

هذا من ناحية العمل السلبية . أما الإيجابية فحسبنا أن نرجع إلى أصول
منظوماته وما أدخله عليها المرة بعد الأخرى من التنقيح والتهذيب ، شأن
المتنطس لا شأن الموسوس . فإنك ترى اللمسات التي تزيد القلب حسناً
والمعنى صدقاً ، فإذا البيت من الأبيات بعدها أطبع وأصنع . وما كانت
هذه التوفيقات لتقع إلا بدوام الطلب ، وإيقاظ الذهن لها ودوام التفكير
فيها ، مع استفزاز الخيال وتدقيق الذوق . وبودلير كان يفعل هذا طول
الوقت . ولكنه كان لا يفعله وهو إلى منصدة العمل . وإنما يفعله وهو
متسكع في طريق ، ومتبطل في المقهى ، بل في أحضان جان ديفال .

ولم يكن أبغض إلى بودلير من التكسب بالكتابة . فكان الرجل الممتاز
في نظره هو صاحب الفراغ والثقافة الواسعة ومن يتوافر فيه الغنى وحب العمل .
فلما غاضت موارد بودلير من بقية ماله الموروث ، منذ وضعت هذه
الموارد في يد قيم من أصدقاء الأسرة لم يكن يصرف للشاعر إلا ما يقيم به
أوده ويبنى بالتكاليف الضرورية لحياته اليومية ، دون حساب لنفقاته الكثيرة
على نفسه وعلى خليلته السوداء السكيرية ، لم يبق أمام شاعرنا الهاوى إلا
احتراف الكتابة لكسب معاشه ، ولما كانت له منذ حدائنه الأولى في منزل
أبيه ألفة باللوحات الفنية وقد لازمه هذا الحب للتصاوير طول صباه ، ثم
كانت بعد ذلك معرفته للرسم « ديروى Deroy » وتردده معه على مراسم
الرسامين والمثاليين وغشيانه في الحى اللاتيني للمقاهى التي تغص بالنقاد
والفنانين فلا عجب إذا رأيناه يسترعى أنظار أهل المعرفة حين طرق النقد
الفنى بما نشر عن « معرض ١٨٤٥ » "Le Salon de 1845" من مقالات

تمتاز بالأسلوب المتين القوى المنطق الطلي معاً ، كما تمتاز بما تتضمنه من أفكار جريئة وحصيفة عن أعمال الفنانين ثم أعقب ذلك بعد عام بمقالات عن « معرض ١٨٤٦ » ، تفوق فيها على نفسه فضلاً عما دمج من الفصول الأدبية في شتى الموضوعات ومنها قصة « فانفارلو Le Fanfarlo » التي ظهرت في يناير سنة ١٨٤٧ .

وعلى حين فجأة انقطع سياق هذا النشاط المطرد الذي كان ديدنه في تلك السنوات ، وكان السبب اشتغاله عن الأدب بالسياسة التي كان حتى هذه الساعة غريباً عنها لا يفكر فيها فلقد جرفه ذلك التيار الفوار الجياش بالانفعالات والأفكار الذي أدى إلى ثورة فبراير سنة ١٨٤٨ ولم يكن لشاعرنا عن ذلك مندوحة فقد كان يسكن وسط حى الطلبة في باريس ويردد على مقاهى الضفة اليسرى وكانت تربطه أوثق الصلات بالكثير من الكتاب والشعراء من الحزب الاشتراكي . بيد أنه لا يستبعد أن يكون هنالك في الوعي الباطن سبب كامن بعث الشاعر إلى المشاركة في الثورة ضد الملكية ، وهو كراهته لأحد قوادها وهو زوج أمه الجنرال أوبيك . ويرجع ذلك ما زعمه بعضهم من أنه رأى الشاعر وفي يده بندقية جديدة وهو يصيح وسط جلبة الثوار « هيا نعدم بالرصاص الجنرال أوبيك » وأيا كانت حقيقة الحال فإن بودلير لم يلبث أن عاد إلى الاشتغال بالشعر والأدب والنقد الفنى والاستغراق فيها دون السياسة كسابق عهده .

وكان بودلير قد أخذ يقرأ منذ عام ١٨٤٦ ما كان يظهر في الصحف والمجلات الفرنسية من تراجم لقصص الشاعر الأمريكي المعاصر « إدجار ألان بو "Edgard Allan Poe" » وما كان يخلعه الكاتبون على مؤلفها من عبارات التقدير والإطراء : وكان بودلير قد تعلم الإنجليزية منذ طفولته ، ولما كان ما قرأه للشاعر الأمر يكفى في تلك السنة قد حرك نفسه من أغوارها فتد بلأ بودلير إلى بعض الأمريكان المقيمين في باريس

لإعارته مجموعات الصحف والمجلات التي كان « بو » يديرها أو يكتب فيها إذ لم تكن أعماله وقتئذ مجموعة في كتاب . وكم كانت دهشة بودلير عظيمة حين وجد للأديب الأمريكي قصائد وقصصاً يؤكد بودلير أنها سبق أن وردت على خاطره ، ولكن في صورة مختلطة مشوشة مبهمة ، على حين أحسن « إدجار بو » نظمها والبلوغ بها إلى حد الكمال . ولم يلبث أن عكف الشاعر الفرنسي على ترجمة ما يقع تحت يده من مؤلفات الشاعر الأمريكي . وكان أول ما نشره من تراجمه في مايو عام ١٨٤٨ ثم ظلت هذه التراجم شغله الشاغل سبعة عشر عاماً ، حتى قبيل وفاته .

وعلى الرغم من أن هذه المقالات الفنية والفصول الأدبية ، فضلاً عن الترجمات عن الإنجليزية ، قد كتبها بودلير تحت ضغط الحاجة إلى المال ، فإن بودلير لم تفارقه طبيعة التجويد . فكان ينتج اليسير بعد الجهد الكبير . وكانت الصحف التي يرأسها ، فضلاً عن الناشرين لا تعطى الكثير ، فهان عليه أن يستدين ، ويلجأ طوال الوقت إلى أمه ويطرق باب أصدقائه . هان عليه التفريط في كرامته إنساناً ، ولم يهن عايه التفريط في كرامته فناناً . وما كان ذلك الاهتمام منه مقصوداً على توليداته وبنات أفكاره ، بل اشتمل كذلك على ما اضطلع به من تراجم لأقاصيص الكتاب الأمريكي إدجار بو Edgar Poe . ولقد تعجل ذات مرة في تقديم بعضها للنشر لحلول الموعد المتفق عليه مع الناشر ، وقبض منه الأجر . فلما اطلع على تجارب الطبع لم يرض عنها تدقيقه ، واستولت عليه وساوسه ، وملكه شعور بالتحرج والإيم ، وغلبه حب الكمال ، فوقف طبعها ودفع مصاريفه على قلة ما بيده ، وانفسخ العقد الذي بينه وبين الناشر وساعت عنده سمعته . وهو في أثناء ذلك يعاني أشد الفاقة ويكاد يموت من البرد لعجزه عن شراء وقود للمصطل ، وقد رثت ثيابه حتى كان يجشى عليها أن تتمزق من أدنى حركة . ومن المحقق أن بودلير في أخذه نفسه بهذه الشدة . والمبالغة في

التدقيق والتجويد ، لم يكن ينظر في ذلك إلى إرضاء القراء ، فإن سوادهم الأعظم أميل إلى الترخص . ولكن حاسته الفنية كان يؤذيها القصور والنقص ، وتتشد في كل شيء التمام والإحكام . ومن أقواله هذه النبذة : « كان للمستبد الرومانى نيرون عادة محمودة . فقد كان يجمع في الساحة العامة للألعاب جميع الشعراء المقصرين السخفاء ، ويجلدهم بمشهد من الملائكة . والقارئ لا شك يلمس في هذا الذى أورده بودلير مبلغ إيمانه بالواجب للفن وشدة تعصبه له .

وننتقل إلى جانب آخر من شخصية بودلير المركبة . فالذى يطلق على أخباره ويقرأ على الأخص مجموعة أشعاره ، لا يشك في أن بودلير المستهتر كان في نفس الوقت متصوفاً . فهو قد جمع بين ما كان في أبيه من طبيعة وثنية ، وبين ما كانت عليه أمه من روح مسيحية . وهو في حبه للجمال لم يكن بأقل منه حباً للخير . والقارئ لأوصافه المتوهجة للرذيلة يحس أنه يتعذب بنارها أكثر مما يتلذذ بها . وأنها ليست له بالمستقر ، ولكنها المطهر . فانغمسه في الرذيلة إنما هو حركة اليأس وطلب للنسيان وضرب من الانتحار ، وإلا فهو أشد الناس شهوراً بما تتورط فيه الحياة الدنيا من إسفاف وما تجره على النفس والجسم من تاروت :

« اللهم هبى القوة والشجاعة

« فأنظر في قلبي وجسمي بلا استمزاز »

ومن يقرأ كلام بودلير في مذكراته الخاصة عن المتعة الجسدية ، وما يعقده من شبه بينها وبين التعذيب والعملية الجراحية ، يدرك أن شهواته ذهنية أكثر منها جسدية . وجملة القول في مثله ، أنه رجل من أهل المعاني مغرق في هوة المادة يتخبط فيها وطرفه شاخص إلى السماء . ومثل هذه الطبيعة المزروجة ، مع تفرزها إلى اللذة لانتهى قط عندها ولا تتجمد عليها ، بل لا تزال تذكر أغاني المهذ وتدلبل الأم وتتطلع إلى الحب الصادق الرفيع .

ملاك الخير ربة الحب البيضاء

ما برح بودلير منذ صباه الأول ذا شهوة منهومة إلى العطف والحنان . فلما أخطأه الحنان أو توهم أنه أخطأه ارتقى في أحضان الرذيلة يلتمس فيها من الحنان بديلاً . وفي رسالة من رسائل بودلير الأخيرة إلى أمه يشير إلى هذا الذى ترتب على حرمانه وهو قى من كنفها وحنانها إذ يقول : « تركت المنزل أبقاً ، فكنت منذ ذلك الحين مقصياً مهجوراً ، فأنصرف كل هيامى إلى اللذات ودوام الغواية . . . » ولقد بلغت هذه اللذات قممها في جان ديفال ، فذاق حلوها ومرها وعرف نشوتها وخمارها . ثم أخذ المريغلب على الحلو ، وزاد الخمار على النشوة . وفعل الزمن والإسراف فعله في الجارية المعشوقة ، فلم تعد تلك « الربة السوداء » التى عهدناها . لقد أدركها الكبر ، وذهب غيدها وكشف جسمها وثقلت نهضتها ، ثم هى اليوم أشنع ما رأها سوقية ، وأقبح رذيلة ، وأمعن كذباً ، وأنكى شراً .

فأخذ بودلير يكره عشتها ، وصار عزمه يقوى على فرقتها . وساعد على ذلك أنه وجد أخاً له فى الروح هو الشاعر القصصى الأمريكى « إدجار بو » . الذى استغرق حواس شاعرنا بالخيال الشارد والصور المفززة ، فافتتن بمطالعتة وشغل بترجمته . يضاف إلى ذلك أنسه بأمه . فإن مدام أوبيك بعد رحلتها البعيدة مع زوجها سفيراً فى تركيا ثم فى إسبانيا قد عادت معه بعد اعتزال الخدمة إلى باريس ، حيث أنعم عليه الإمبراطور نابليون الثالث برتبة الشرف (اللجيون دونير) وجعله عضواً فى مجلس الشيوخ . فتجدد اللقاء بين الأم وولدها كما كانا قبل سفرها ، يتلاقيان فى المتاحف

وبخاصة متحف اللوفر شتاء وفي الحداثات أيام الربيع ولقد تركت هذه المتنزعات ولا ريب أثرها الخلو في نفسه. فإذا عرضت للقارئ في رسائله مثل هذه العبارة « لا تحلو باريس إلا في جلوة الشمس بمحادثتها الموقنة البديعة ». فليعلم القارئ أن هذه العبارة ليست منه مجرد استحسان فني، بل هي تنطوي على شعور عميق شخصي .

وأحس الشاعر بحاجة غامضة - وإن تكن قوية - إلى حياة غير الحياة التي عاشها حتى الآن مع جان . أحس بالحاجة إلى أن يتصل بالمرأة لا عن طريق الحب وحده بل عن طريق القلب ومبادلة الحب بالحب . إنه ينشد الحبيبة لا الشريكة في المنكر . لقد سم هذا المنظر ، سم مشهده المتكرر وأنى وحيماً ذهب في « رحلته » :

« كل ما استرعى منا العيون

« دون تكلف للبحث والطاب

« في حيثما نظر الناظرون

« ومن أعلى إلى أسفل طبقات الدرج المشوم

« المعصية الأولى ، معصية الأبد » .

« تتراءى بمنظرها المتكرر المشوم » .

أجل ، لقد طوى بودلير صفحة العشق السوداء ، وفتح بيد رفيقة مرتجفة صفحة بياض . وفي هذه الصفحة تألقت وجوه ساذجة باسمه ، فيها طيبة ونقاء ، وعليها مسحة السماء .

فحة الآتسة ماري دوبرين Marie Daubrun الممثلة الناشئة ، جميلة ، حلوة الطباع ، صديقة الحياة من ذوات الصون والعفاف ، تعول والديها الفقيرين المريضين بالعمل الشريفي ، وتعود متعبة آخر الليل

فترعاهما وتسمهر عليهما . وفيها نظم بودلير « أنشودة الخريف » وعرف أول ما عرف الحب العذرى .

وهناك ماري أخرى ، لا نعلم من أمرها شيئاً إلا وقوفها نموذجاً حياً للرسامين طلباً للعيش . ويظهر من خطاب بودلير إليها أنها زهدت في صناعتها بسببه ، وأنه فاتحها بحبه فهاج شجونها ولكن لغيره . فضت تحدثه شاحصة العينين حاملة بما يشغل قلبها . تحدثه عن الرجل الآخر الذى استأثر بلبها ، واختصته دون الرجال بحبها ، فهى له خالصة الود ، حافظة للعهد . وسكرت حواس بودلير وهو يسمع حديثاً كان في اعتقاده قبل اليوم حديث خرافة . فهو يهتف بها : « كوفى كذلك دائماً واحرصى أشد الحرص على هذا التفانى في الحب الذى حلع عليك الجمال كله والسعادة كلها » وإذا إعجابه الشديد بهذا التفانى يدفعه إلى أن يتمناه ويريده لنفسه « عودى ، أضرع إليك ، عودى إلى » . سألزم نفسى الترفق والتواضع في رغائى ، وأشواقى . ويردد في حرارة : « لا تخشى شيئاً ، إنك موضوع عبادتى ، وعزيز على تدنيسك إنى أحبك يا ماري ، والذى أحمله لك من الحب منزله مثل حب المسيحى للرب . إنه حب لا كالحب . . . فلا تنعنى بهذا الاسم الشائع البشرى - الموصوم في أكثر الأحيان بالحزى - هذه العبادة الروحية الخفية السر ، هذه الجاذبية الحلوة الطاهرة التى تقرن روحى بروحك على الرغم منك لقد هدتنى عيناك إلى سعادة الروح بكل ما فيها من لطائف وكمالات . . . أنت من نفسى شطرها الفاقض من جوهر روحانى . . . بك يا ماري أصبح قويا عظيماً ، سأخذلها تخليد " بترارك " لورا ، فكوفى ملكى الحارس ، كوفى سيدتى العذراء » . ولا يبرح خيال بودلير - وهو يكتب خطابه الطويل - منظر عينها وفيها وجميع شخصها فائز الحمية مشبوب الانفعال وهى تتحدث إليه حديثها عن رجلها الذى تحبه . فيقول قبل الختام : « سعيد ، سعيد



الزهرة البيضاء . . . مدام سباتيه

للرسم باري Barye

ألف مرة الرجل الذى اخترته بين الرجال ، أنت الراجحة العقل الوافرة الجمال ، أنت المومونة ذهنًا وقلبًا وروحًا » .

وسواء أكانت هذه الفتاة أهلاً لكل هذا أم غير أهل ، وسواء أكان بودلير مغالياً فيما أظهره أم غير مغال — فإن ورود ما ورد من هذا الخطاب من ألفاظ لا عهد له بها ومعان غريبة عنه ، دليل على أن الشاعر اليوم غيره بالأمس ، وأنه فى طور ثان من حياته ، هو الطور الوجدانى العاطفى .

والمرأة التى يحق أن نسميها عروس شعره فى العهد الحديدى هى مدام سباتيه Mme Sabatier وهى المعروفة بمجلسها الذى كان يضم نخبة من الأدباء والفنانين فى عصرها والتى جروا على تسميتها بـ « الرئيسة La Presidente » .

وكان ميلادها فى ستراسبورج سنة ١٨٢١ . وهى للسنة التى ولد فيها بودلير ، فهى من لداته . ولا نعلم عن أسرتها ولا عن أحداثها الأولى شيئاً . وأما مبدأ اشتهار أمرها فيرويه الرواة على الوجه الآتى :

كان بعض من يسمونهم « بالشباب الزاهر » وهم الرواى « روجيه دى بوفوار Roger de Beauvoir » والشاعر « الفردى موسيه » والمؤلف المسرحى « ارفرس Arvers » والمالى « هبوليت موسلمان Hippolyte Mosselman » وغيرهم من شبان العصر الغطاريـف—فى شرفة فندق بيمودان الفاخر كعادتهم يسمرون ويتطلعون ، إذ خرج من مدرسة السباحة القائمة على ضفة النهر ثلاث غوان حسان ، كانت إحداهن تلبس قلنسوة أرجوانية من قلانس البندقية على شعرها الوافر الذهبى ، وكان شعرها مرسلاً ولا يزال مبتلاً تلتمع الشمس فى ثناياه . فاشتربت أنظار السادة إلى هذا السرب من شواذن الظباء ، ودعوهن للمنادمة والسمر فاستجبن للدعاء . ولم تلبث ذات القلنسوة الأرجوانية أن وقعت فى قلب المالى « موسلمان » موقع الاستحسان العميق الصادق . وكان شاباً صبيحاً ظريفاً محباً للفنون الجميلة ، فاتخذها له صاحبة وجهها داراً فاخرة . وكان اسمها إجلال ولقب الأسرة

سباتيه أى الإسكافى Aglaé Savatier . فلم يعد الاسم ولا اللقب في معناه يروقاها . فتمست « أبولونى » أى شقيقة « أبولون » إله الفن اليافع الوسيم ، وحرفت لقبها فصار سباتيه . فهى منذ ذلك الحين أبولونى سباتيه :
Appolinie Sabatier

ومدام سباتيه كما قلنا من الغواى الحسان . مبيتلة الخلق . ممكورة الأعطاف ، لطيفة الأوصال ، رقاقة البشرة ناعمة ، تجمع إلى نصاعة البياض تورد اللون ، ولا يحتاج خداهما إلى صبغ لإذكاء حمرةهما . وشعرها بلون النحاس المحلو مع انعكاسات في شعاع النور كشذور الذهب . تتألق عيناها النجلاوان بنظرة فيها الزكانة والفطنة والخبث البرىء الصياني ، وهفو على شفيتها القرزيتين ابتسامة ابتهاج عابثة . وكان أصدقاؤها يقولون مخلصين إنها خلقت لتكون مثالا ينقل عنه المثالون . ولم يلبث أن تحقق قولهم ، فقد وقعت عليها عين المثال كليسنجر Clésinger في ليلة راقصة أقامها الروائى روجيه دى بوفوار ، وهى في ثوب للسهرة شبه متجردة على المألوف في مثل هذه الحفلات عند أهل الفنون ، فراعها منها استواء القوام واسترسال الأعطاف وحسن التقطيع . وأخذ عنها تمثاله « المرأة الملدوغة » ويمثلها مضطجعة وهى من لدغة الثعبان تتلوى . وعرض تمثاله في معرض مايو سنة ١٨٤٧ . ولقد قامت القيامة يومئذ على الفنان ورهوه بالتحايل على إظهار الجسم في أوضاع وحركات تثير الشهوات .

وإذا كنا نذكر ذلك فلأنه مثال من الأمثلة على بدء خروج الفنانين في ذلك العصر على عادة المدرسة القديمة في معالجة الصور العارية بتمثيلها في عالم الخرافة على صورة الرباب وجنيات الماء وحوريات الغاب . وانصرفهم إلى الفن الواقعى وما لقيته موجة الفن الواقعى الحديد من احتجاج ومعارضة . ونحن لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن مدام سباتيه كانت من أشهر الجميلات في أواسط القرن التاسع عشر : وأنها كانت معروفة لجميع الفنانين :

وكانت لا يكاد يخاو معرض من صورة لها أو تمثال نصفى يمثلها . ولم تكن شهرتها مقصورة على جمالها بل تتعدى ذلك إلى حسن لبسها وأناقته هندامها . فقد كانت لا ترى إلا رافلة في الثياب الفاخرة ، وإن لم تلتزم فيها الزى الشائع التزاماً . فإن أصدقاءها من الفنانين كانوا يبتعدون لها خاصة ما يناسب طرازها من الجمال . وتتفق الأقوال على أنها كانت طيبة القلب بقدر ما كانت جميلة ، وأنها في حينما طلعت أشاعت حولها السعادة والبهجة . فلاغرو أن أصبح جناحها الذى تسكنه في شارع فروشوت Frochot ملتقى الإعلام في عالمي الفن والأدب يسمرون عندها أيام الأحد ، نذكر منهم شاعرنا بودلير ، والشاعر الناثري الإبداعي تيوفيل جوتييه والروائي المعروف بعق تحلياه وبلاغة أسلوبه « جوستاف فلوبير » والمنشئ المجدد ذى التفانين الغربية « باربي دورفلي » والقاصصى « أرنست فايدو » والأديب الرحالة « مكسيم دى كامب » والمثال « كليسنجر » والمصور « ميسونير » وغيرهم .

وما كان يحب هؤلاء الرجال في مجلس مدام سباتيه أنها كانت على غير المعهود في غايات المحاسن لا تكلفهم دوام الاهتمام بها ولا تنتظر من كل رجل أن يتغزل بحسبها . فكانوا عندها على سمجيتهم ، إن شاءوا تبسطوا في السمر — وكثيراً ما كان يخرج به جوتييه إلى فاحش المحزن — وإن شاءوا خاضوا في المسائل الجدلية العويصة ، فلا يثقل نقاشهم عليها ولا تحاول أن تصرفهم عنها إلى الموضوعات النافهة أو الأخبار الشخصية . ثم إنها مع إقرار الجميع لها بالجمال واعتمادها في الحياة عليه كانت بعيدة كل البعد عن الخيلاء والعجب . وكانت رحيمة القلب ، لا تضيق بأخلاق أصحابها ولا تريد على غير طباعهم . ولم تفكر في إبان نعمتها أن تقبض يدها وتدخر لمقبل أيامها وخريف حياتها . ولما أخذت زهوتها في الذبول ونقص حظها من غضارة الجمال فقل معه نصيبها من العشق والمال . لم يسقط في

يدها ولم تعدم بهجتها . لقد باعت أثاثها الفاخر ونفائس صورها ورياشها ، وعمدت إلى البساطة في زينتها وعيشتها ، وانتقلت إلى شقة أرضية لطيفة الأثاث مرتبة مهندمة ، ولكنها ظلت فيما سوى ذلك على حالتها تتلقى أصدقاءها بما هو معهود من إشراق طلعتها ومجايل عزتها وطرب غنائها ورنة ضحكها وفيض طبيعتها .

وكان أول تفكير بودلير فيها واشتغاله بها ، على نحو من الإمعان والحرارة أكثر مما يكون بين الأصدقاء ، في آخر عام ١٨٥٢ ، أى بعد تسعة شهور من انقطاعه عن عشيقته جان ديفال وعلى أثر خيبته في حب ماري . فقد استولى عليه شعور أليم بالانفراد والوحشة . وزاد حنينه إلى الأنيس ، إلى إنسانة تفهمه ، إلى من يفيض عليها أفوايق هذا العطف اللذي تكثف به جوانحه ، ويصرف إليها هذه القوة العاطفية التي لم يقدرها من اتصل بهن حتى جان ديفال . وفي هذه الحالة النفسية كان يغشى بودلير في أيام الأحد مجلس مدام سباتيه في شارع فروشوت ، وكان في ذلك الحين ساحماً مربد الوجه . وقد صار لعينيه السوداوين نظرة عميقة شاردة ، وبرز عظم وجنتيه قليلاً ، وارتسم على وجهه أخدودان ، ينتهيان بفم دقيق تدلت شفته السفلى في استخفاف يتعارض وما في النظرة من جد صاوم . وكان عريض الجبهة أجلح إلا من خصلة متهدلة ، قصير الشعر حليق الوجه . وسحتته في جملتها تبليل الفكر وتقلق الخاطر .

وكان طويل الصمت . وإذا تكلم فبالمفارقات أو اللداعات الساخرة . وهو على الحالين لا يظهر منه انبساط لحديث القوم وبخاصة حين يهزلون . ومع هذا فإنه كان شديد المواظبة على الحضور . إنه منساق بما يجده من ارتياح في جوار مدام سباتيه . لقد كانت حجرة استقبالها بمناضها الأنيقة : ومقارشرها البيضاء الناصعة ، وآتيها الفضية وأزهارها تبدو له جنة السلام ، ومستقر البهجة وبر الأمان ، بعيداً عن فوضى غرفته الموحشة ، وبعيداً عن

مطاردة دائنيه . ثم هو يأنس بما في مدام سباتيه من ذكاء وجمال وطيبة . فكيف به في وقت هو أشد ما يكون شعوراً بالحاجة إلى الأُنس بامرأة تجتمع لها هذه الصفات . وليس يعنينا أن هذه كانت صفات مدام سباتيه حقاً ، ولكن الذي يعنينا أنه انكشف لنا في هذه المناسبة — أكثر مما انكشف في سائر المناسبات — ما في بودلير من الرقة ولطافة النفس والإحساس المهذب . لقد وقر في خلده أنه وجد الخير والجمال ، وجاهداً في مدام سباتيه ، فهو مؤمن بأن في الدنيا خيراً وجمالاً . وهو سعيد كل السعادة بذلك الإيمان . وهذا هو في درك الهاوية يتطلع إليها ، مؤملاً في الخلاص على يديها ، مستبشراً متلهلاً متفتح الروح لهذا (الفجر للروحاني) .

« حين يدخل الفجر الأبيض الزاهر ، في قلب الفاجر .
 « ومعه المثل الأعلى المنشود بوخره الشديد الأليم
 « يفعل سره الخفي في قلب الفاجر فعلة القاهر
 « فإذا في البهيم الهامد يستيقظ ملك كريم

* * *

« وإذا السموات العلية الروحانية
 « ينفتح فلكنها المكور البعيد المنال
 « غائراً سحيقاً ، له ما للهاوية من جاذبية
 « للصريع الذي لا يزال متألماً حالماً بالكمال

* * *

« كذلك — يا ربّي الحبيبة ، يا ذات الطهر والصفاء —

« على البقايا الداخنة من ليالى العريضة الحرقاء
 « تهفو أمام عيني الشاخصة فى الفضاء
 « ذكرارك وضاعة زاهرة ساحرة بغير انتهاء

* * *

« فى وجه الشمس تصبح نيران الشموع كابية كامدة
 « كذلك ذكرارك على الدوام ظافرة غالبة
 « أيتها الروح المنيرة ! أيتها الشمس الخالدة ! »

ولكن الشاعر لم يجرؤ على إظهار حبه ، والتغنى بشعره إلى موحيته ، بل كان يبعث بهذه المقطوعات الواحدة بعد الأخرى غفلا من اسمه ، متعمداً فى نسخها وتروير خطه ، راجياً فوق ذلك ألا يطلع عليها سواها . ولو كان الناظم لهذا الغزل غير بودلير لأنشده « للرئيسة » فى مجلسها على الملأ من أهل الأدب والفن . فهو أخرى وأليق من الكثير من النوادر والنكات التى كان يتفكك بها زميله « تيوفيل جوتيه » فى المجلس ، فيضحك منها القوم أو يتضحكون وهى فى جملتهم . ولكنه كان مفرط الإحساس ، شديد الحياء . يكاد يكون ذلك عنده وسواساً ومرضاً . فكيف به وقد غالى بها ، وأعلى قدرها من فرط حبه لها ؟ إنه لاشك يتخالجه منها ما يتخالج العابد من الهبة لمعبوده . بل إن هنالك ما هو أدهى من ذلك . ونعنى به كبرياءه . فأخشى ما يخشاه قد لا يكون غضبها ، وإنما هو ضحكها . إن مجرد التفكير فى ذلك يلقي فى روعه الاضطراب والوهل ، ويكاد يبغضه فيما هى عليه من الطرب والجدل . فتراه يذكر انشراحها وطيبها وعافيتها وجمالها ، ويتساءل ألم تعرف قط أضدادها المخالفة ، ولم تدخل عليها أحوالها المعاكسة . وكأنما يتمنى لها ذلك لتفتح عينها على حاله ، ويضمن عطفها

على آلامه وأوجاله :

« أيها الملاك الطروب ، هل عرفت الألم
« والهوان والسأم ، والنحيب والندم
« والهواجس المبهمة في الليالي المظلمة
« أيها الملاك الطروب ، هل عرفت الألم ؟

* * *

« أيها الملاك الطيب ، هل عرفت البغضاء
« ودموع الغل الكظيم ، وتربص الثأر في الليل البهيم
« وقد صرح الشر ، وبات فينا صاحب النهى والأمر
« أيها الملاك الطيب ، هل عرفت البغضاء ؟

* * *

« أيها الملاك الموفور العافية ، هل عرفت السقم
« وأسوار الملاجئ العالية الشاحبة البياض
« يدب بينها المرضى يجرون القدم
« أيها الملاك الموفور العافية ، هل عرفت السقم ؟

* * *

« أيها الملاك الموفور الجمال ، هل عرفت الذبول
« وخشية المشيب ورهبة الأفول
« وذلة الرضى بالوفاء دون الهوى .
« أيها الملاك الموفور الجمال ، هل عرفت الذبول ؟

* * *

« أيها الملاك السابح في السعادة والسرور والنور
 « في جسمك الساحر برة للدنف المسحور
 « ولكني يا ملاكي لا أسألك إلا الدعاء المبرور
 « أيها الملاك السابح في السعادة والنور » .

على أن بودلير القديم لم يميت ، وما زالت طبيعته الأخرى تنازعه .
 إن العشرين سنة — أو نحو ذلك — من حياة العشق الأولى مع جان ديفال
 تركت أثرها في طبيعته ، وهيبات أن يمحي ... فإذا به بعد حين تبدر
 منه في ترنماته الروحية للربة الجديدة نبرات متفرقة فيها بعض الصدى البعيد
 لأشعاره في جان ، ثم لم يلبث بعدها أن أطل شيطانها في قصيدة من أروع
 قصائده التي يتوجه بها إلى الربة الجديدة « إلى المرحمة المفرطة المرح » :

« طلعتك وحركتك وسماؤك
 « تحكي في ناظري أجمل الرياض ،
 « وضحكك تشيع في محياك الوضاء
 « مثل النسيم العليل في صحو السماء

* * *

« وتمرين بالحزين العابر
 « فتبهره منك روعة العافية
 « تتفجر كالنور الدافق
 « من ساعد ومن عاتق

* * *

« والألوان الصخبية المجلجلة

« التي تنثرينها في زينتك
« تلقى في روع ناظمى الأشعار
« صورة مرقص من مرقص الأزهار

* * *

« هذه الأثواب الموشاة المتبرجة
« عنوان على نفسك المتفننة
« أيها المفتونة التي أنا بها مفتون
« لى أبغضك بقدر ما أهواك

* * *

وأذكر يوماً في بستان
« درجت أجرد جسمى الخائر
« فأحسست في الشمس ضحكة ساخر
« تمزق بالنور صدرى الخامر

* * *

« وأحسست أن الربيع النضير
« فيه الهوان لقلبي الكسير
« فأنزلت بزهرة من الزهرات نقي
« جزاء للطبيعة الوقاح على إهانتى

* * *

« كذلك يا شد ما أشتى

« في ليلة من الليالات وقد أذنت ساعة اللذات
« أن أدب كاللص الحسيس
« إلى ذخائر حسنك النفيس

* * *

« فأنتقم من جسدك الطروب
« أخذش صدرك الغفور
« وأطعن جنبك المذعور
« طعنة نجلاء جوفاء

* * *

« ثم يا للذة الهوجاء ؟
« حين أهوى على هذه الشفاه الغضة
« الغريرة الباهرة الحلوة

« فأنتث فيك سمي : يا شقيقة نفسي .»

شسنة نعرفها في بودلير القديم ، بنفسه المعقدة ، وتوفر أعصابه ،
وجنون حسه . وفساد شهوته ، ووقدة خياله . ومهائف شيطانه . وشأن بودلير
في هذا شأن الطبيعة المزدوجة التي يحدثن عنها علم النفس الحديث ، والتي
يعرفها ولا ينسى روعها من قرءوا للروائي الإنجليزي ستيفنسون قصة «الدكتور
جيكل وستر هايد» .

وأما ما كان من أمر مدام سباتيه ، فإنه لا يمكن أن تكون قد
ضلت طويلا معرفة ناظم هذه القصائد الرائعة فيها من بين زائريها . على
أنه حين صدرت مجموعة ديوانه وفيها هذه المنظومات شجعه اشتهار أمره ،
وما ثار من ضجة حول شعره : فأهدى إليها نسخة منه . عني بتجليدها

لها خاصة . ومعها رقعة كشف القناع فيها عن وجهه : وضمنها شعائر حبه .
وفى هذه المرة ترامت المعبودة بين ذراعى العابد . وهى تقول جوابها له :
« إني أسعد النساء . وما رأيته قط أبدع وأروع فى عيني منك الآن
يا صديقي الأجل . فافعل لى ما أنت فاعل . إني لك بقلبي وعقلي وجوارحي ... »
ولكن هيهات ، هيهات أن يتحقق الوصال . لقد قام بينه وبينها مثل
عقلة السحر من خيال جان ديفال .

وأدركت المرأة الذكية عقدته النفسية . فافترقا على غير حزاة . وقد
ذكرها بعد ذكر من يحبها على البعد ويرجو لقاءها بالروح فى ملكوت
الخلد :

« إلى أحب النساء . إلى أجمل النساء
« إلى من ملأت قلبي بالضمياء
« إلى الملاك ، إلى المعبود الخالد
« تحيتي فى الخلد

* * *

« إلى التى أشاعت فى حياتي
« روحاً كالهواء المنعش
« إلى التى فى كياني المحبول من الفناء
« أفرغت طعم البقاء

* * *

« إلى نافعة الطيب الذكى
« تنضوع فى معهد الهوى العذرى

« إلى الحمرة مبروكة يتصاعد منها البخور
خفية تحت جناح الديجور

* * *

« هيات أيها الحب النزيه الصريح
أوفيك حقلك من الوصف الصحيح
يا حبة المسك الخافية الثاوية
في قرارة نفسي الباقية

* * *

« إلى أحب النساء ، إلى أجمل النساء
إلى التي كانت بهجتي وصحتي
إلى الملاك ، إلى المعبود الخالد
تحياتي في الخلود .

ولقد بقيت مدام سباتيه تكن له في نفسها أطيب المودة . وكانت على
عيادته في مرض موته أحرص النساء بعد أمه .

قاتل نفسه

« أنا الجرح والسكين

« أنا الطاعن والطعين » .

لم يكن لبودليير بعد أن فقد فردوسه إلى جانب فينوس البيضاء ، إلا أن يعود العودة الأخيرة إلى مباءته المألوفة ، إلى الخلية الساقطة جان ديفال . وما كان له بعد هذه المحاولات من سبيل للحب غير سبيل جان ديفال ، وبخاصة اليوم وهو مريض نضو سقام . إنه لا يستطيع الحياة وحده ، فأعصابه مختلة مشوشة ، وقد كانت تساوره بالليل المخاوف والأوهام ، وهذه المرأة ، جان ديفال رفيق على كل حال . ومع ذلك ، فإن العلاقة بينهما كانت لا تلبث أن تبرم حتى تنقض ، ثم تبرم ثانية لتعود للانقراض ، فالبون شاسع بين بودليير الشاعر المبدع ، والنائر البليغ ، والناقد الذي عنده مقطع الحق ، ومشعب السداد في الأدب والتصوير والموسيقى — وصاحب الفضل في ذلك التنبيه الموفق ، المديد مرى النظر ، البعيد مطروح الفكر إلى عبقرية « إدجار بو » (Poe) الشاعر الأمريكي ، ومانيه (Manet) الرسام الفرنسي ، وفاجنر (Wagner) الموسيقار الألماني ، نقول إن البون شاسع بين هذا الرجل ، وبين هذه المرأة البهيمية الشريرة القبيحة السكير . ولقد اتخذ بودليير لهما عشا في أحد الشوارع القديمة القدرة ، فكان ينس العش من دوام الشجار ، فتركها إلى الفندق صادق العزم على العمل ، وتعامل على نفسه ، ولكن خذلته قوته ، لقد حانت ساعة التفكير ، فهو معذب الجسم أرق ، يستعين على الأرق بالمغيبات ، فيزيد على أوجاعه الغثيان والقيء ، وهو يشكو وجع الرأس ، وعسر التنفس ، وقد أصابه احتقان نحى ، ثم لم يلبث أن أبل منه .

وأخيراً سافر بودلير إلى باجيككا لطله يكون أسعد حظاً وأوسع رزقاً ، ولكنه صدم في أملة أفضع صدمة . وفيما هو يزور إحدى الكنائس الأثرية في « ناور » مع بعض المشتغلين بالأدب والنشر ، خر صريعاً في صحنها ، وأقاموه فإذا هو مفلوج في الشقة اليسرى ، وقد اعتقل لسانه ، فحملوه إلى مستشفى في بروكسل ، وأرسلوا إلى أمه في باريس (وهي أرملة للمرة الثانية) فبجأت المسكينة على عجل . وطالت الحال بالشاعر في المستشفى دون أدنى أمل . فتنقلوه إلى باريس في دار من دور المرضى ؛ ولكن المنية — وأأسفاه — لم تعاجله ، وبقي أشهراً ، وكأنما بقي للعبوة ، يجر نصفه المفلوج جراً ، وهو صاحي الذهن يدرك كل ما حوله ، ولكنه إذا أراد العبارة لم يطاوعه النطق . لقد أصيب الشاعر المتعاليق في موضع قوته وإعجازه . وفي آخر يوم من أغسطس عام ١٨٦٧ أدركت بودلير رحمة الله فتقضى نحبه . وهو في السادسة والأربعين من عمره :

« يا موت ! ... أيها الملاح المحنك ، الموكل بسفر الأرواح ،
 « آن الأوان . فارفع المراسي ، وهيئ لنا الرحيل
 « مللنا المقام هنا — يا موت ! ... فحجّل الرواح
 « وإن يكن — أيها الملاح ! — قد ادهم
 « أمامك البحر والسماء
 « فإن نفوسنا التي أملت بها — يشع منها الضمياء » .

الخلاصة

تراءى للقارىء لا محالة فما عرضناه من سيرة الشاعر ، أن حياته كانت في واقع الأمر مأساة . ويزيد في وقع المأساة أن القدر لم يمهل ، فقد بدأت مأساته منذ أوليات صباه :

« لم تكن أيام صباى إلا الزوبعة القاتمة
تتخلل ظلامها بعض الدارى الباسمة
وقد أنزلت الصواعق والأمطار بجديقتي أعظم الضرر
فلم يبق منها إلا اليسير من يافع الثمر »

لقد عرف بودلير - وهو طفل لم يعد الثامنة من عمره - غيرة هملت المتفجعة العارمة لزواج أمه . فطبعته الغيرة بنزعة للثورة امتدت بعدها إلى سائر حياته . وكان من جراء تفتح عينيه على ما يسميه خيانة أمه ، وخيبة ظنه من كانت مثله الأعلى ، أن مضى كالناقم يحطم مثله العليا في الحياة . فهو من قبل بلوغ العشرين خارج " على الدين ، مسهتر بالحدود ، مجاهر بالعصيان ، ساخر بالسموات والأرضين . ولكن المتأمل في حقيقة موقفه ولحن كلامه يرى فيه تجدد اليأس وتجديف النثر ، ويراها أبعد ما يكون عن تلك البرودة المعهودة في منطق الكافرين . وذلك الجفاف في تفلسف المعطلة المنكرين . وثما هو جدير بالاعتبار أن الشاعر نفسه حين جمع هذه الأشعار جمعها تحت عنوان « الثورة » . وحسبنا أن نورد في هذا المعنى مقطوعتين من قصيدة له بعنوان « المتمرّد » :

« انقض الممالك المنتقم من السموات العلى كالنسر الكاسر

« وأمسك بجميع يده القوية شعر الملحد الكافر
« وقال وهو يهزه هزا عنيفاً : (الزم الشرع ،
« أنا ملاكك الساهر على خيرك — كذا أريد) »

* * *

« وأنحي بقوته الجبارة عليه — والعقاب بقدر الحب —
« منكلاً أشد النكال بهذا المتمرّد على طاعة الرب .
« والمتمرّد المنكل به لا يفتأ يلمتوى ويصيح : (لا أريد) »
كذلك كان بودلير في هذا الطور منغمساً في شهوات الجسد إلى أحط
الدرك . ولكن ينبغي ألا يفوتنا أن الشهوة هنا أيضاً كان يخالطها — فيلهبها —
ما في حجم نفسه الثائرة من الرغبة في الخط من المرأة ، والنزول بها إلى
مراغة الحمأة . فيعمد إلى التغنى بالساقطات ، وما في جزيرة ليسبوس من
موبقات ، وسائر ما تحسنه الفاجرة من أفانين الغوايات . وفي هذه الفترة
من جنون الحب نظم قصائده الرائعة في جان ديفال « ربة العشق السوداء »
كما يقول ، وهي لا شك المعنية بقوله :

« إني لأستخلص من كل شيء لبابه العجب
« أعطيني الوحل فصغت منه الذهب »

ومنذ الثالثة والعشرين ، أصبحت موارد بودلير محدودة ضيقة بعد
البسبوحة والسعة . فعرف فوق ما عرف أزمات الضئيل والفاقة ، وأعباء
الديون وملاحقة الغرماء الدائنين ، وضرورة الكد ، وهوان التكسب بثأر
العقل وعصارة القلب . فهو ينظم في معنى شقاء العيش وثقل تكاليفه ،
وحال الذين لم تمنّ عليهم الحياة ، والطريدين من رحمة الله ، والمصدودين
عن سبيل الخير ، والخائبيين فيما قصدوا إليه من أمر . ومن ممة أطلق على

الكثير من أشعار هذه الفترة لفظاً مستحدثاً عن الإنجليزية بمعنى (السوء) Spleen وهى تشترك جميعاً فى لون الأسى ورنه الشجا وطعم المرارة. ولكن الذى يلفتنا ويؤلنا أكثر من هذا جميعه ما يرين عليه فيها من شعور قاتل بالسأم حتى لا تكاد تخلو قصيدة من لفظه مردداً أكثر من مرة :

« شرّ ما يجنيه على المرء زوال التطلع وانقضاء العجب :

« الملل يستفيض ويستفيض بغير حد استفاضة الأزل »

وفى الثلاثين نشط الشاعر من الهمود الذى ران عليه . وكان الحافز على هذا الابتعاث والنشاط تولعه وقتئذ بمؤلفات الشاعر الأمريكى « إدجار بو » واهتمامه بنقله والترجمة لسيرته وجهاد حياته . ثم زاد على ذلك مطالعته للفيلسوف السويدى سويدنبورج وتأثره بروحه التصوفية . كما اتفق له فى هذا الطور غرامه العاطفى بمدام سباتيه (ربة الحب البيضاء) . وهنا أوفى على التمام والنضج حتى بلغ أوج إنتاجه الأدبى . فهو الثابت اليقين فى مواهبه ، البصير بأغراضه ، المستكمل لأدواته . وقد أرصد للأشياء حسه ، وأيقظ إلى مضامين رموزها حدسه ، وفتح لتجاوبها نفسه :

« الطبيعة معبد تكتنفه أسرار الدين
 « تصمد عن أعمدته الحية فى الحين بعد الحين
 « أصوات كالزمزمة بكلمات مختلطة مبهمه
 « ويجوس منه الإنسان فى غابات من الرموز
 « تراعيه ، وتحلق فيه بنظرات أليفة

* * *

« وكما تختلط الأصداء المديدة فى الآفاق البعيدة

« في وحدة غامضة عميقة .
 « لها راحة النهار وشبهه الظلام
 « كذلك في معبد الطبيعة
 « تتجاوب العطور والألوان والأنغام

* * *

« ومن العطور ما هو كأجسام الأطفال نداء
 « وكالأنغام عذوبة ، والحقول الخضراء نصارة
 « كما أن منها الداعر المجاهر ، القوى الرائحة الفاضحة التناثر
 « كالعنبر والمسلك ، وميعة الجاوى ، وعود الهند
 « يتضوع ريحها ويمتد
 « كاللهاثى بغير حد
 « فيطرب النفس ويسكر الحواس » .

* * *

وأما في الطور الأخير من حياته فقد غلب عليه الوجوم والندم وهو
 ينظر إلى كر الزمن ، ويستعرض السنين الطويلة التي أضاعها من حياته
 ويفكر في قصر المدة الباقية له قبل مماته .
 « الفن طويل الشقة ، والزمن قصير المدة » .

وقد أخذ الهول ، وهو يعاين عند قدميه هوة الفناء فاهة ضاحكة
 منه ساخرة . ولكن إيمانه بالآلم كان يقوى . لقد شق منذ طفولته ، وشق حتى
 في لذته ، وما كان الآلم ليذهب سدى . لقد كان الآلم خصباً لعبقريته في

ه ، وهو لاشك الخلاص له في مماته :

تبارك يا ربّ سوطُ المنقَم°

تبارك يا أبته الأُم°

فلم تاركَ نفسىَ بين يديك°

بالعوبة من هوانٍ ليداك°

تعاليت فيما اقتضت حكمتهك

وقدّستَ فيما ارتضت رحمتهك°

الخاتمة

مكانة بودلير وأثره في الأدب

حين ظهر « ديوان أزاهير الشر » قال كبير شعراء العصر وقبيل « فيكتور هيجو » عن صاحبه إنه أحدث في الشعر انتفاضة جديدة . ولا نبالغ إذا قلنا : إنه لم تنقض على وفاة بودلير عشر سنوات حتى أخذ يتأثر الشعر الفرنسي كله تأثيراً مباشراً أو غير مباشر بهذه الانتفاضة التي سرت رجفتها إلى نخاع العديد من الأجيال مع اختلاف في مدى الاعتراف بذلك التأثير والتسليم به .

والسبب في أن تأثير بودلير لم يظهر حق ظهوره إلا بعد وفاته ، يرجع إلى ما كان ينقصه من الجرأة على فرض نفسه على من حوله من أبناء عصره ، وإلى طبيعة رسالته الفنية التي كانت من العمق والصدق غامضة متناقضة غير محدودة ، ومن ثمة لم يتح لشاعرنا في وسطه أن يحشد تلك القوة المتولدة عن الإعجاب والفهم ، ويخلق منها ذلك الجو الجماعي الذي يكفل للفنان في حياته عصبية من الأنصار والمريدين المتأثرين . وأيا كانت الحال ، فإن تأثير بودلير بعد وفاته كان شديداً ، كما كان مطرد الزيادة . ويلاحظ أن تأثير بودلير يتولد في النفوس خفياً أول الأمر ، وقد يظل خفياً ، وعلى غير وعى من المتأثرين به يحكم كونهم من متوسطي الذكاء أو يحكم شهرتهم التي تحول دون اعترافهم بفضل بودلير عليهم ولعل أول من سيطر عليهم بودلير حق السيطرة وظهرت آثار تأثيره فيهم ظهورها المبين هو الشاعر المشهور « بول فرلين Paul Verlaine » . ومن عجائب الحياة أن هذا بعينه ما جعله يقتصد في الكلام عمن كان له القدوة والإمام فلم يأت في وصفه — حين وصفه — إلا بالعبارات المبتذلة على كل لسان : « كان بودلير كاتباً

مبرزاً وشاعراً كبيراً ، ولا حاجة بنا إلى مزيد من القول لتوكيد ذلك . وأن النصاعة العجيبة في أسلوبه وشعره البراق المتين السلس ، وخياله القوى النافذ التأثير ، وفوق هذا جميعه تلك الحساسية المرهفة دائماً العميقة في أغلب الأحيان القاسية في بعض الأحيان ، كل هذه الصفات تكفل لشارل بودليير مكانه بين صفوفه مفاخر الأدب في زماننا ، مع استثناء بلزك Balzac وفيكتور هيجو بطبيعة الحال .

وعلى العكس من ذلك موقف الفنى الشاعر « آرثر رامبو » Arthur Rimbaud صديق فرلين ، فقد كان أول من حيا بودليير باللهجة التى تناسب عظمة شأنه وحقيقة مقدرته ، فهو رب من الأرباب وأول أهل البصيرة والكشف ، وملك الشعراء .

ونذكر ممن تأثروا بشاعرنا قطعاً من أقطاب الرمزية قبل هذين وهو : إسطفان مالارميه "Stéphane Mallarmé" الذى يذكر قراؤه — ولا ريب — بهذه المناسبة قصيدته « قبر شارل بودليير » .

بيد أن الرمزية الغامضة عند مالارميه قد فتحت للكثيرين من الشعراء بعده الطريق على مصراعيه لاتخاذ الرمزية وسيلة سهلة ميسورة للتمويه على من يسهل التمويه عليهم من القراء باصطناع لهجة مبهمه يعتمد الشاعر فيها على تأثير كل لفظ في ذاته والجمع بين هذه الألفاظ في تراكيب تعذب القارئ وتروعه دون أن يحصل ما وراءها .

ولقد امتد تأثير شاعرنا ، بودليير ، رائد الرمزية من حيث المضامين المعنوية إلى الكثيرين بعد هؤلاء سواء جاء تأثيره مباشراً أو عن طريق هؤلاء أنفسهم . ولقد نوه بهذا التأثير أكثر من ناقد شهير ، حتى من بين من كان يغلب عليهم الفتور من ناحيته ، ومنهم « جيل ليمتر Jules Lemaitre » الذى لم يسعه مع ذلك إلا أن يقول : « إن بودليير يتوافر لديه بقدر كبير ما ينقص غيره من يكبرونه ويتقدمون عليه ، ونعنى به ذلك الإحساس وذلك الاهتمام ،

وذلك الفرع من السر الغامض الذى يكتشفنا
 بيد أنه ليس هنالك أكثر دلالة على مدى تأثير « بودلير » فى الزمن
 الأخير من كلمة للناقد الشهير « برونيتير » Brunetiere « أرسلها فى لهجة
 حائقة كاللعنة الساخطة المحرقة . ونحن إذ نثبها هنا ، لا نثبها من قبيل
 الموافقة ، بل باعتبارها — كما أسلفنا القول — أقوى الشواهد الناطقة القاطعة
 على ما بلغه شاعرنا من استفحال الشأن وغلبة السلطان فى الأزمنة الحديثة .
 « إن بودلير أحد الأصنام المعبودة فى هذا الزمن وهو أشبه ما يكون بصنم
 شرقى فظيع شائه الصورة وقد زاد فى شناعته الطبيعية ما أضفى عليه من الأصباغ
 الغربية . ومعبد هذا الصنم المعبود من أكثر المعابد زحاماً » .
 أما اليوم فالفكرة السائدة عند النقاد وعند القراء على السواء ، هى أنه
 — من غير أدنى مبالغة — يمكن القول فى صراحة وثقة ، أن الشعر الفرنسى
 فى جملته يمكن تقسيمه إلى قسمين : ما قبل بودلير ، وما بعد بودلير .
 وهذا غاية ما يمكن أن يقال للتعبير عما أصبح لشاعرنا من المكانة والتأثير
 الذى امتد إلى الأدب العالمى عبر العصور .

١٩٨٦ / ٤٨٧١	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٧٧٢-٧	الترقيم الدولى

١ / ٨٦ / ٢٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.١٠)

اقرأ

بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك
دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة
العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش
معهم .. كما عاش الآباء والأجداد ..
وتكوّن في مكتبتك موسوعة متفرقة في فروع
المعرفة المختلفة .

وإيماناً منا بأن القراءة هي أقصر
الطرق إلى الوعي والثقافة .. فقد يسرنا لك
ذلك في إخراج جيد .. وسعر زهيد .

